روايات الهلال

شتاء الأحزان

جون شتاينبك

منتدى سور الأزبكية

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٥٦ ـ اغسطس ١٩٧٨ ـ رمضان ١٣٩٨
No. 356 — August 1978

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبو المجد

رئيس التحرير : الدكتور حسين مؤنس

سكرتير التحرير : موسى عبيد

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليما • عن الكميات المرسلة بالطائرة ـ فى سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشا ، فى الاردن ٢٠٠ فلسا ، فى العراق ٣٠٠ فلسا ـ فى الكويت ٣٠٠ فلسا ـ فى السعودية ٣ر٥ ريال سعودى

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا ـ فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢ر٥ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • وفى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية • والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة

تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

شتاء الأحزان

جون شتاينبك

ترجمة

محمود مسعود

دار الهلال

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

مقدمة

أزجى الينا الكاتب الأمريكى الأشهر « جون شتاينبك » فى هذه الرواية قصة فياضة بالقوة حافلة بالحياة والمرح والحب ، تصور فى واقعية أخاذة مقترنة بالتحليل الدقيق انماط حياة شخصياتها الفريدة وصراعاتها فى تلك البلدة الصغيرة باقليم نيوانجلند الأمريكى، وخاصة « ايثان » بطل القصة الذى يستهويه صراع الحياة العنيف ومغرياتها التى تعصف بالنفوس وتخلخل القيم ، و « مارولو » الايطالى رب المال المحنك الذى يعمل « ايثان » أجيرا عنده ويتلقى فى مدرسته أسرار المهنة وأصولها ، و « مارجى » المرأة المغرية العابثة التى لا تكل من نصب شراكها حول الرجال ولاسيما « ايثان » مستعينة فى ذلك حتى بالسحر وقراءة الطالع ـ وكيف يبدأ « ايثان » حياته مجدا كادحا مؤمنا بالفضائل ، فاذا لاحت له بوادر النجاح ضعف أمام اغراءاتها القوية متأثرا فى هذا بحياته الكادحة وظروفه العائلية العانية وبيئته الانتهازية المتنافسة حتى يكاد يتخلى عن استقامته ومثله الطيبة ليجد طريقه فى النهاية وقد تفجرت فيه الآلام وانطمست المعالم وابهمت السبل ، حتى اذا ضاقت الدنيا فى وجهه سعى الى التخلص من حياته لولا بصيص ضياء لاح له لكى يعدل عن عزمه ويرتد الى الجادة .

بيد أن هذا المجمل لاينبغى أن يحجب عن النظر تلك الملابسات الدقيقة التى اقترنت بأحداث الرواية والتى توخاها المؤلف وهو يعرض لنا تسلسل الأحداث وتشابك الوقائع لكى يجعل منها مادة فكرية تتجاوز نطاقها المحلى المحدود الى الدائرة الانسانية الأوسع التى تتشابه فيها نحائز الناس وغرائز البشر وتضطرب على مسرحها شتى النوازع من خير وشر ومن فضائل ورذائل ومن مثل عليا تستشرفها القلة المختارة ومطامع مادية يتعلق بأذيالها السواد الأكبر، بحيث اذا تعمقت القصة ونفذت الى مراميها لم تجدك تقرأ سياقا قصصيا ممتعا وحسب ، وانما الفيتك تستشعر احاسيس مشتركة تكاد تتفاعل فى كل بيئة مجردة عن المكان والزمان ، وتجاوبا فكريا

نابعا من الانتماء الى البشرية في عمومها . وربما كان من الخير ان نعرض لهذا بشيء من التعقيب دون مساس بالسياق القصصي او الدخول في صميم الأحداث حتى لا تفوت القارىء متعة الجدة وطلاوة المتابعة .

ولعل اول ما يعرض لنا من هذا هو قضية العلم والعمل وصلاتهما الوثيقة بمعترك الحياة . فقد نبغ « ايثان » بطل القصة في العلوم الانسانية التي صقلت فكره وشحذت مواهبه وانارت بصيرته فلم يعد مجرد الانسان العادي الذي يساق في خضم الحياة دون ارادة ولا وعي أو تدبر ، وانما هو يتناول بالتفكير والتحليل والتأمل كثيرا مما يعرض له في حياته ـ احداثا وأناسا ـ على نحو يفتح أمام القارىء منافذ عديدة يتأدى منها الى اطوار النفس البشرية وادق خلجاتها وخوافيها ، الى حد انه يتخذ لنفسه ملاذا بين شعاب الكهوف البحرية يخلو فيه الى نفسه كلما حزت به الأمور واعيته سبل التصرف لكي يجد في هداته من الصفاء النفسي والاشراق الفكري ما يبدد الظلمات ويهديه الى وجوه السداد ـ ذلك وهو مجرد بائع في محل بقالة لاينال من الأجر ما يمسك عليه حياته وحياة اسرته . الا ترى ان اختيار المؤلف لشخصية هذه سماتها انما هو اختيار بارع ان كان يترجم عن تصوير لأنماط العيش السائدة في المجتمع الأمريكي ومايماثله من المجتمعات الغربية الأخرى من حيث اعتبار العلم والتعليم لا مجرد سلاح يتوسل به الانسان لشق طريقه في مفاوز الحياة وانما هو منفذ الى غاية اسمى وهي صقل هذه الحياة المادية بما يسبغ عليها الطابع الجمالي بكل عناصره الفكرية والنفسية والروحية والمعنوية حتى تصبح الحياة في النهاية اسمى من مجرد تحصيل « لقمة العيش » واحفل بالتذوق والمتاع؟ ثم الا يسوقنا هذا الاختيار الى مقارنة محتومة ـ مجرد مقارنة ـ بين مايتوخاه شبابنا من التعليم ـ ولا نقول العلم ـ من مجرد التلقين والتحصيل لنيل الاجازة الجامعية والفوز بعدها بالوظيفة العامة كمحط ينتهي عنده كل هدف ويجمد أو ينعدم بعده كل سعي للتزود من العلم بما يحفظ على الفرد كيانه الانساني وذاتيته المتميزة في مجتمع نابض بالحيوية الفكرية في كل مجال ؟ للقارىء ان يضيف الى هذا ما يشاء ، وان يخلص في النهاية الى ان انبعاث شبابنا الى هذه الوجهة التعليمية العلمية بكل أو بعض مقوماتها كفيل بتغيير حياتنا الفكرية الرتيبة والتخفيف من أوجه القصور والتعثر والحيرة

التى يعانى منها شبابنا ومجتمعنا والارتفاع بها الى مستويات وذرى خليق أن يبلغها شبابنا وهو على ذلك قـــدير وله اهل اذا وعى وتدبر وصمم .

وقضية ثانية نستشفها من أحداث الرواية هى قضيـــة الفقر والغنى وصلتها بالحياة التى يحياها الناس . كان « ايثان » بطل القصة سليل أسرة ذات حسب ونسب ، فلما ذهب عنها الجاه والمال واتجه الشاب الى العمل والكدح لكسب القوت مستمسكا فى ذلك بأسباب الاستقامة اذا كل من حوله يعيرونه بفقره : زوجة تثقل عليه بمطالب البيت والأولاد وتهيب به الى الاستزادة من المال لكى يكفل لهم رغد العيش ويدفع عنهم المذلة بين النـــاس ، ومجتمع متكالب على المال يسعى الى اقتنائه بكل الوسائل مشروعها وغير المشروع ، واغراءات تعرض له وتلح عليه ليقتنص بدوره مايستطيع حتى لو توسل الى هذا بقبول الرشوة والسطو على المال . فماذا يكون مسلكه بين هذه المحاذير التى يأبى عليه طبعه الوقوع فى مزالقها ويناى به فكره المتدبر دائما عن التردى فى مهاويها ؟ انه رغم ذلك يريد المال والغنى ــ لا لذاتهما ــ ولكن لكى يحقق لأسرته ما تطمع فيه ولكى يتساوى مع الأنداد والجيران . وهو يسلك الى هـــذا ســـبلا متعددة حرص فى بعضها على الاستمساك بنواميس الاستقامة وجرفه التيار فى بعضها الآخر الى التفكير الآثم لالتماس المال غصبا ، لولا أن تداركته المقادير وعصمته من التورط الفعلى فى الاثم وهيأت له من المال والجاه ما هو حقيق أن يبدل حياته .

وقضية ثالثة يطرحها « جون شتاينبك » من خلال هذا العرض القصصى الشائق ، هى قضيـــة الأبناء وتنشئتهم مزودين بالعلم والخلق . فنرى ابن « ايثان » الصبى اليافع يكاد ينصرف عن التفرغ للتعليم متعجلا للشهرة والمال عن طريق المسابقات التليفزيونية التى تتنافس الشركات الاذاعية فى تقديمها ، وقد أدى به الجنوح فى هذا المسلك الى افتعال نجاح فرحت به الأسرة أول الأمر ، وعندما تجلى زيفه كان مخيبا لآمال الأب مقوضا لكل هذه القيم التى كان يسعى الى غرسها فى نفس ولده ، حتى لقد كانت هذه الصدمة أشد العوامل التى دفعت به الى التفكير فى وضع حد لوجوده كله لولا ذلك الضياء النفسى الذى يلوح له فى اللحظة الأخيرة لكى يرد عليه ايمانه وينفض عنه عوادى الخذلان واليأس .

وقضية رابعة ساقها المؤلف هى قضيـــة الانزلاق الى الخطيئة بتأثير المغريات النسوية التى ظلت تحاصره بها تلك المرأة العابثـــة اللعوب رغم اصطناعها الصداقة لزوجته . فهل يستطيع حبـــه لزوجته ووفاؤه لأبنائه أن ينأى به عن الاستسلام للغواية ويعصمه من الزلل ؟ للقـــارىء أن يستخلص النتيجة من ثنـــايا المحاولات والمحاورات التى تثير الفضول طوال السياق الروائى الحافل .

لكن ثمة قضيتين أخريين أجل شأنا وأقرب الى العموم والشمول ان يكن « جون شتاينبك » قد عرض لهما فى ايجاز فان لهما من الخطر ما يضعهما فى قمة القضايا العالمية الـكبرى . احداهما هى قضية الحرب والسلام وصلتهما الوثيقة بأســـلحة الدمار النووى الذى يهدد البشرية كلها بالفناء ما لم يتغير أسلوب معالجة القضية تغييرا جذريا له فيه راى طريف ان يكن أقرب الى الغيبيات فانه قمين أن يمسك على البشرية ســـلاحها وأمنها ويدرأ عنها مهالك الدمار والفناء . وثانيتهما هى قضية الفساد السياسى الذى تعانى منه مجتمعات دولية كثيرة ولـكنها اكثراستشراء فى المجتمع الأمريكى. ولعل أخطر ما فى هذه القضية هو اتخاذها سلاحا ماضيا فى معارك المنافسات الانتخابية لا بهدف الاصلاح ولكن لأغراض القضاء على الخصوم والتخلص من المنافسين . ولعل ما نقرأه من هـــذا فى تقلبات المعارك السياسية الأمريكية هو تأكيد لما أزجاه المؤلف من أخطار هذه القضية على الحياة السياسية وتحذير من الانسياق فى تيارها الجارف الذى اضحى فى العهود الأخيرة يهدد بتقويض استقرار مجتمع السياسة الأمريكية وغيره من المجتمعات المماثلة ، وهى قضية ذات ارتبـــاط ملحوظ بالاستقرار والأمن العالميين .

وبعد ، فلا ينبغى أن نقول ان هذه القضايا وأمثالها قد ساقها المؤلف عامدا وأبرزها سافرة وذات كيانات مستقلة عن القصـــة ذاتها ، ولكنها البراعة القصصية التى تمزج القصة القوية والأحداث الروائية المحبوكة باللمحات الفكرية الثاقبة التى نستخلص مراميها من خلال السياق والتى يبرع فيها اساطين القصة العالميين من أمثال « جون شتاينبك » . وفى هذا ما يسلك القصة بين شوامخ الآداب العالمية ويجعل الوقت الذى ينفق فى قراءتها معينا من الزاد الفكرى والامتاع الأدبى يضيفه القارىء الى رصيده المدخر .

محمود مسعود

الجزء الاول

الفصل الأول

ما ان اهلت بواكير هذا الصباح المشرق من شهر ابريل حتى استيقظت مارى هاولى ثم انثنت الى ناحية زوجها ، ولما رأته يهم بمعابثتها بادرته قائلة :

ـ الا تكف عن هذا الهذر يا ايثان ؟ أم ان المعاكسة اصبحت متأصلة فى طبعك ؟

ـ قولى ياحبيبة الروح ، هل تقبلينني زوجا ؟

ـ هل استيقظت فعلا ، أم انك لازلت مخدر الحواس ؟

ـ ان السنة كلها قد اجتمعت فى هذا اليوم ، واليوم كله قد اجتمع فى هذا الصباح البديع .

ـ اذن فقد استيقظت فعلا . هل تتذكر ان هذا يوم الجمعة الحزينة ، وعيد الفصح على الأبواب ؟ وهل سيدعك مارولو تغلق محل البقالة فى الساعة الحادية عشرة صباحا ؟

ـ ان مارولو يا مهجتى رجل لا يتقيد بأى عرف ، والأرجح انه لن يظهر طول النهار . سوف اغلق المحل عند الظهر الى ان تنتهى المراسم المقدسة .

ـ يخيل الى انك لا تتكلم عنها بالاحترام الواجب ، وهذا شىء غير لطيف .

ـ هذا الأسلوب ورثته عن امى ، وهو اسلوب القراصنة فى الكلام .

ـ انهم لم يكونوا قراصنة . انت نفسك قلت هـذا ـ كانوا صيادى حيتان ، وكانوا معتمدين من الكونجرس فى ذلك العهد .

ـ ان السفن الانجليزية التى كانوا يطلقون عليها النيران كانت تعدهم قراصنة .

ـ هذا خلط فى الكلام يا ايثان . ان كل الظروف تدعوك الى الفخر بنسبك . فأسرتك كان فيها المهاجرون الأوائل الذين استوطنوا اقليم نيوانجلند هذا ، وكان منهم ربابنة سفن صيد الحيتان .

واجتماع هذا في أسرة واحدة يدعو الى الفخر حقا .
ـ وهل أجدادي العظام يمكن أن يشعروا بالفخر اذا عرفوا انهم انجبوا بائعا لمينا في محل بقالة لمين في بلده كانوا من اكابرها ؟
ـ انت لست هكذا . انت اقرب الى مدير للمحـــل ، فانك تمسك الحسابات، وتورد النقود للبنك، وتباشر طلب السلع للمحل.
ـ صـحيح . وانا ايضـا اكنس المحل وانقل القمامة واداهن مارولو ، ولو كنت قطة لاكلت ايضا فئران مارولو .
فطوقته مارى بذراعيها قائلة :
ـ دع عنك هذا الكلام السخيف ، ارجوك الا تذكر هـذا القذف ونحن في يوم « الجمعة الحزينة» ، انني احبك . وكلامك انساني ان اكلمك عن « الأولاد » .
ـ هل دخلوا السجن ؟
ـ اراك عدت الى السخف من جديد . ربما كان الأفضل ان يخبروك هم .
ـ ولم لا تخبرينني انت ؟
ـ ان مارجى الملقبة « بالصيادة الشابة » سوف تقرأ لى الطالع مرة اخرى اليوم .
ـ من هى مارجى هذه ، التى يتهافت عليها العشاق و ... ؟
ـ انت تعرف انني لست غيورة ، وان كانوا يقولون انه عندما يتظاهر الرجل بالاستخفاف بفتاة جميلة ...
ـ تلك المخلوقة فتاة ؟ انها تزوجت مرتين !
ـ ان ثانى الزوجين توفى .
ـ اريد ان افطر . هل تصدقين تلك الخزعبلات ؟
ـ لابأس . ان مارجى قرأت الطالع لأخى ، قالت ان شخصا قريبا وعزيزا سوف ...
ـ ... ان شخصا قريبا منى وعزيزا على سوف ينال رفسة اذا لم يقم حالا باعداد الافطـار .
ـ سأذهب . بيض ؟
ـ اظن .
وفعلا لم يكد ايشان ينتقل الى المكان الصغير المخصص للطعام قرب النـافذة حتى وجد القهوة معدة الى جانب البيض والخبز المحمص . وفى اثناء الطعام دست فى جيب صدره قائمة بالأصناف المطلوبة للبيت قائلة :

ـ انها تبدو كثيرة ، لـكن لا تنس ان هذه عطلة عيد الفصح . « دستنا » بيض على الأخص . سيقوم الآن وايلين بتلوينهما . يحسن ان تذهب الآن .

ـ حسنا يا زهرتي العاطرة ، لـكن الا يمكن ان اصعد اليهما واتحفهما « بعلقة » ؟

ـ انك تدللهما اكثرمن اللازم يا ايثان. الآن اذهب على بركة الله .

خرج ايثان الى اشراقة الصباح المونق بالخضرة واشعة الشمس الذهبية ، ولم يتمالك أن تلفت خلفه يستجلي مشهد البيت العتيق البديع ، بيت أبيه واجداده ، الأبيض الطلاء والمشيد على هيئة سفينة تعلو مدخله تلك النافذة الدائرية الـكبيرة ، وتحف به حديقة يانعة الخضرة ، حفلت بالزنابق التي يرجع عهدها الى مائة عام .. ثم تابع سيره الى شارع « ايلم » حيث التقى في منتصفه بصراف البنك جومورفي خارجا من دار اسرة فيليبس التي تحولت الآن الى « بنسيون » ، وما ان رآه مورفي حتى حياه قائلا :

ـ اهلا يامستر هاولي ، كنت في طريقي اليك .

كان جومورفي اشبه في ملامحه بحصان ، خصوصا اذا ابتسم وبدت اسنانه الـكبيرة المربعة ، ولـكنه كان محبوبا في بلدة « نيو بايتاون » هذه رغم انه قدم اليها منذ اعوام قلائل ، وكان محاسبا ماهرا وصرافا متمرسا ، حتى ان مستر بيكر رئيس البنك منحه ثقته الـكاملة الى حد انه وكل اليه معظم العمل في بنك « فيرست ناشونال » ، وكان مورفي يعرف كل شخص معرفة وثيقة ، ولكنه لم يكن ينادي أحدا باسمه المجرد ، فهو ينادي ايثان باسم مستر هاولي ، ومارجي « الصيادة الشابة » باسم مسز «يونج هانت» ، على الرغم من الهمس الدائر بانه على علاقة سرية بها ، ولم تكن له اسرة ولا اقارب ، وكان يقطن وحيدا في غرفتين بدار اسرة فيليب ، ويتناول اكثر وجباته في مطعم فورماستر ، وكان حريصا على نظافته متأنقا في ملبسه .

وسار الاثنان معا متجهين الى شارع « هاى » ، وفي الطريق قال مورفي :

ـ كنت اود ان اسالك : هل لك قرابة بامير البحر هاولي ؟

فقال ايثان : تقصد ادميرال هالزى ؟ ان اسرتنا كان بها ربابنة كثيرون ، لـكن لم يكن بها امراء بحر .

ـ سمعت ان جدك الأكبر كان ربانا لسفينة صيد الحيتان ،

وربما كان هذا سبب خلطي بينه وبين أمير البحر .

ـ ان بلدة مثل بلدتنا لابد أن توجد بها أساطير ، مثل الأسطورة القائلة بأن بعض العاملين مع أبي كانوا يقومون بأعمال القرصنة ، يا له من يوم رائع لم أر أبدع منه في حياتي !.. لماذا كنت تريدني؟

ـ آه . نعم . اظن انك ستغلق المحل فيما بين الثانية عشرة والثالثة ، فهلا جهزت لي بعض الشطائر حوالى الحادية عشرة والنصف ؟ سوف أجيء اليك وآخذها ، مع زجاجة لبن .

ـ الن يغلق البنك أيضا ؟

ـ سوف يغلق ، لكنني سأبقى به لانجاز الحسابات المتأخرة ، ان عطلة كبيرة كهذه سوف تجعل كل الناس ، حتى كلابهم ، يتهافتون على سحب وصرف الشيكات .

ـ لم اكن اظن هذا .

ـ بل هو الواقع ، سلسلة اعياد : عيد الفصح ، وعيد الرابع من يوليو ، وعيد العمل ، كلها عطلات طويلة ، ولو اردت السطو على بنك لفعلت هذا قبل واحدة من هذه العطلات الطويلة ، فالأموال المعدة للصرف تكون كثيرة ، جاهزة ، تنتظر .

ـ ألم تتعرض ياجو مرة لحادث سطو ؟

ـ لا ، لكن لي صديق تعرض للسطو مرتين .

ـ وماذا قال في هذا ؟

ـ قال انه استسلم للفزع ، كل ما فعله انه انطرح على الأرض اذعانا للتهديد وتركهم يسطون ، وقال ايضا ان أموال البنك مؤمن عليها أكثر من التأمين على حياته !

ـ سأحضر لك الشطائر عندما اغلق المحل ، عن طريق الباب الخلفي ، ما هي الأصناف التي تريدها ؟

ـ لاتتعب نفسك يامستر هاولي ، سأجيء اليك عبر الحارة ، أريد لحما مقددا وجبنا وبعض الخس و « المايونيز » ، ثم زجاجة لبن و « كوكا » لما بعد .

وأردف مورفي بعد برهة :

ـ كيف حال مارولو ، الذي هو وحده عصابة « مافيا » ؟

ـ على مايرام فيما اظن .

ـ انه شخصية عجيبة ، الناس يعرفون براعته في البيع والشراء وافتناص الصفقات الرابحة ، وان كانوا لايعرفون مبلغ ثروته ، اما

انا فلست فى حل من الكلام فى هذا ، لأن صراف البنك مفروض فيه الكتمان .

ـ وانا من رايك ، انك لم تكمل القضية ، هل قبضوا على اللصوص الذين سطوا على صديقك فى البنك ؟

ـ طبعا ، قبضوا عليهم كالفئران ، من حسن الحظ ان اللصوص ليسوا اذكياء ، لو ان جومورفى الف كتابا عنوانه « كيف تسطو على بنك » ، لما تعبت الشرطة فى القبض على اللصوص .

فضحك ايثان قائلا :

ـ اشرح لى هذا باختصار ، فاننى اريد ان افتح المحل .

فراح جو يقول :

ـ سيداتى وسادتى : اننى اقف امامكم هذا الصباح لكى ... لكن لا ... الأفضل ان اقول : كيف يمكن القبض على لصوص البنوك ؟ اولا ـ بالبحث عن السوابق ، ثانيا ـ تشاجر اللصوص على المسروقات وايقاع احدهم بشركائه ، ثالثا ـ فتش عن المراة ، فلابد ان يبعثر اللصوص الأموال المسروقة على النساء ، رابعا ـ رصد من ينفقون بسخاء واستخلاص اللصوص بينهم .

ـ حسنا يا استاذ ، وما هو اسلوبك فى السطو ؟

ـ فى غاية البساطة ، لكل نقطة عكسها ، لا تحاول ابدا السطو على بنك اذا كنت من ارباب السوابق ، لايمكن لك شركاء ، قم بالعملية وحدك ، ولا تقل شيئا لاى انسان ، انس النساء تماما ، لا تنفق الأموال المسروقة ، وضعها فى مكان مأمون ولو لسنوات ، وعندما تحتاج الى المال خذ ما هو ضرورى فقط واحتفظ بالباقى فى حرز حريز .

ـ وماذا يكون الحال اذا تعرف احد على السارق ؟

ـ اذا حجب وجهه ولم يتكلم ، فمن الذى سيعرفه ؟

فوضع ايثان يده فى جيبه ثم اخرجها خاوية وهو يقول ضاحكا :

ـ سأكون مدينا لك بثمن هذه المحاضرة القيمة ياعبقرى البنوك!

فقال جو مورفى :

ـ سأنال الثمن شطائر !

وفى هذه اللحظة اجتاز الاثنان شارع « هاى » وانعطفا الى الحارة الفاصلة بين البابين الخلفيين للبنك ومحل البقالة ، فدلف جو مورفى الى باب البنك وفتح ايثان باب محل « بقالة وفواكه مارولو » ، وتوقف برهة فى مخزن المحل الذى تكدست فوق ارفقه

المتصاعدة الى السقف بصناديق المعلبات من فاكهة وخضر واسماك ولحوم محفوظة واصناف جبن شتى ، واكياس الدقيق والبقول المجففة ، وما لبث أن فتح باب الحارة مرة ثانية واخرج أوعية القمامة المغطاة ، وعندما تحفز قط رابض للوثوب الى الداخل طرده ايشان منتهرا ، ثم عاد الى داخل المخزن واغلق الباب .

واجتاز ايشان الباب الفاصل بين المخزن ومحل البيع ذى النوافذ الزجاجية الكبيرة المظللة بالستائر المعدنية ، وكان هو ايضا مملوءا بالأرفف المتطاولة حتى السقف والتى تراصت فيها بأتم تنسيق وعناية المعلبات المعدنية ، والزجاجية التى لا حصر لها ، والتى كان يسميها « مكتبة المعدة » تفكها ، وحين أضاء الثلاجة الفولاذية الكبيرة اللامعة غمر الضياء الباهر ما بها من شرائح اللحوم والجبن والسجق والأسماك حتى كان لها مشهد أخاذ لم يتمالك ايشان نفسه من استجلائه والاعجاب به .

وانثنى ايشان الى درج فى المنصة الطويلة قرب مسجلة النقود واخرج « مريلة » طويلة مخططة شدها الى صدره ووسطه وربط عقدتها من الخلف ، ثم رفع يده باسطا كفه الى الأمام ونادى قائلا :

ـ صباح جميل يا مخللات منها اللعاب يسيل ، ويا معلبات فاكهة وخضر ولحم اليها تهفو المعدة وتميل !

ثم رفع الستائر الخضراء عن النوافذ الكبيرة وهو يهتف : ادخل أيها النهار المشرق ... وبعدها فتح الأبواب الأمامية قائلا : ادخلى يادنيا !

وانثنى على الأثر الى مكان المغسل الصغير فجاء بمكنسة لكنس الرصيف .

وفى هذه اللحظات اقبل مستر بيكر رئيس بنك « فيرست ناشونال » ، فامسك ايشان عن الكنس وحياه قائلا :

ـ صباح الخير يامستر بيكر .

ـ صباح الخير يا ايشان ، هذا صباح جميل .

ـ جميل فعلا يامستر بيكر ، هذه بشائر الربيع .

فقال مستر بيكر فى وقفة يسيرة :

ـ كنت اريد أن أكلمك يا ايشان عن ذلك المال الذى آل الى زوجتك بموجب وصية أخيها ـ الذى زاد عن خمسة آلاف دولار، أليس كذلك ؟

ـ ستة آلاف وخمسمائة دولار ، بعد خصم الضرائب .

ـ لاباس ، المبلغ مودع فى البنك ، مجرد ايداع ، ينبغى استثماره أرد ان أكلمك فى هذه المسألة ، ان هذا المال يجب أن يعمل .
ـ ان مبلغا كهذا لايمكن أن يكون له عمل كثير ياسيدى ، هو مجرد احتياط فى حالات الطوارىء .
ـ أنا لست ممن يؤمنون بالمال العاطل يا ايثان .
ـ المسألة ياسيدى هى ان هذا المبلغ بمثابة تأمين مؤقت طارىء ، فى حالة حدوث شيء لى .
ـ اذن يجب أن تستخدم جانبا منه للتأمين على حياتك .
ـ هناك ناحية أخرى للمسألة ياسيدى . أن والدة مارى لاتزال على قيد الحياة ، وربما يمتد بها العمر .
ـ مفهوم . ان كبار السن يمكن أن يكونوا عبئا .
ـ ثم اننى لو استثمرت مال مارى ياسيدى ، فقد أمنى بالخسارة ، كما حدث عندما خسرت مالى ، وكما حدث عندما خسر أبى ثروته .
ـ أنا أعرف انك تعرضت لهذا فعلا ، لكن الزمن تغير ، وهناك فرص كثيرة تتفتح باستمرار .
ـ اننى جربت فرصتى يامستر بيكر ، لا تنسى اننى كنت أملك هذا المحل بعد الحرب العالمية الأخيرة مباشرة ، وقد اضطررت الى بيع عقاراتى الموروثة لمئه بالسلع .
ـ أعرف هذا يا ايثان ، فأنا صاحب البنك الذى تتعامل معه ، وأعرف طبيعة أعمالك كما يعرف الطبيب نبضك .
ـ صحيح ياسيدى ، وفى أقل من عامين أوشكت على الافلاس التام ، وكان لابد أن أبيع كل شيء باستثناء بيتى لكى أسدد ديونى .
ـ لايمكن أن يقع كل اللوم عليك بسبب هذا ، فقد كنت وقتها حديث العهد بالتسريح من الجيش ، ولم تكن لك خبرة فى مجال الأعمال ، ثم لا تنس ان موجة « الكساد الكبير » قد مستك أيضا ، انها أغرقت كثيرين من كبار رجال الأعمال .
ـ بل انها غمرتنى ياسيدى تماما ، فهذه أول مرة فى التاريخ يعمل فيها واحد من أسرة هاولى بائعا فى محل بقالة .
ـ هذا هو الذى لا أفهمه يا أيثان ، كل انسان معرض للافلاس ، أما الذى لا أفهمه فهو لماذا تظل مفلسا ، وانت المتعلم سليل الأسرة الكريمة ، لايمكن أن تظل هكذا على الدوام ، اللهم الا اذا كنت قد فترت عزيمتك ، ودب الخور الى قلبك ، ما الذى دهاك

يا ايثان ، وجملك تستسلم لليأس ؟
فراح ايثان يقول بانفعال :
ـ الانسان لايستسلم لليأس بسهولة ، وبعبارة اخرى هو قادر على المقاومة والتصدى للصعاب ، ولكن ما يقتل الهمة هوالتاكل، ان عوامل التخوف والفزع تتسلل الى نفسه وئيدا ، وانا فى فزع دائم ، فقد تقطع شركة الاضاءة التيار الكهربائى فتمسى اسرتى فى ظلام وبرد ، وزوجتى بحاجة الى الملابس ، واطفالى يطلبون الاحذية ـ والتسلية ، وماذا لو انهم لم ينالوا حظهم من التعليم ؟ ثم هناك فواتير المطلوبات الشهرية واجور الطبيب وعلاج الأسنان واللوز ، والى جانب هذا لنفرض اننى مرضت وقعدت عن كنس هذا الرصيف الملعون ؟ طبعا لا تفهم هذا ، العملية كلها تنخر ببطء فى همتى على مدار الأيام والليالى ، ليس فى قدرتى ان افكر فى ابعد من قسط الثلاجة للشهر القادم ، اننى اكره عملى وانا فى فزع دائم من فقده ، كيف يمكن ان تفهم هذا ؟
ـ مع ذلك انت فى حاجة الى صدمة تشحذ همتك . ان اهلنا كانوا رجالا ذوى جسارة واقدام . وانت تعرف هذا. انهم لم يتركوا انفسهم تتاكل حتى الموت . والزمن الآن فى تغير مستمر . وهناك فرص لم يكن اسلافنا يحلمون بمثلها . وهذه الفرص يقتنصها الاجانب عن بلادنا . ان الاجانب ياخذون عندنا الزمام . استيقظ ياايثان !
ـ وماذا عن الثلاجة ؟
ـ دعها تذهب اذا لم يكن من هذا بد .
ـ وماذا عن مارى والاولاد ؟
ـ انسهم الى حين . انهم سوف يحبونك اكثر اذاتسللت خارجا من جحرك .انك لاتساعدهم بدوام قلقك عليهم وانشغالك بأمرهم.
ـ ومال مارى ؟
ـ اخسره اذا لم يكن من هذا بد ، لكن جازف به ، ومع التدقيق وحسن المشورة لن تتعرض لضياعه ، ان المجازفة لا تعنى الخسارة ، ان قومنا كانوا دائما من اهل المجازفة المحسوبة ولم يتعرضوا لخسران ، سوف اهزك يا ايثان من الأعماق ، انك تخيب بروحك هذه ذكرى الكابتن هاولى ، انت مدين لذكراه بشىء تعمله . يا للعجب ! انه وأبى كانا يمتلكان السفينة « بيل ـ آدير » معا ، وكانت من أمتن واجمل سفن صيد الحيتان ،

انفض عنك غبار الخمول واليأس يا ايثان ، واعمل شيئا للذكرى « بيل آدير » .

ـ ان « بيل ـ آدير » احترقت حتى خط الماء ياسيدى .

ـ أعرف هذا ، لكن هل ثنى هذا من عزمنا ؟ لا بأى حال .

ـ كانت السفينة مؤمنا عليها .

ـ بالطبع كانت كذلك .

ـ أما أنا فلم يكن مؤمنا على بشىء ، ولم استطع سوى انقاذ هذا البيت لا أكثر .

ـ لابد لك أن تنسى هذا ، انك تحزن نفسك بشىء فات وانقضى، لابد أن تستجمع بعض الشجاعة ، والجراة ، ولهذا السبب قلت ان عليك ان تستثمر مال مارى ، اننى أحاول مساعدتك يا ايثان.

ـ شكرا لك ياسيدى .

ـ سوف ننزع عنك هذه « المريلة» ، انت مدين بهذا للكابتن هاولى ، انه ما كان يصدق شيئا كهذا .

ـ اظن ذلك ياسيدى .

ـ هذا هو الكلام المطلوب ، سوف ننزع عنك هذه «المريلة» .

ـ لو لم تكن مارى والأولاد ...

ـ انسهم كما قلت لك من أجل صالحهم ، هناك مشروعات هامة سوف تتم فى بلدتنا « نيو بايتاون » هذه ، يمكنك أن تكون جزءا منها .

ـ شكرا لك ياسيدى .

ـ كل ما اطلب هو أن تدع لى فرصة للتفكير فى الأمر .

ـ قال لى مستر مورفى انه سوف يواصل العمل عندما تغلق البنك وقت الظهر ، وسوف أجهز له بعض الشطائر ، هل تحب أن اجهز لك مثلها ؟

ـ لا شكرا ، ان مورفى رجل كفء ، ولهذا فاننى اترك له كل العمل ، هناك ارض عقارية احب أن ابحث امرها فى مكتب السجلات العقارية ، وربما يكون لك نصيب فيها ، سوف نتكلم فى هذا قريبا ، الى اللقاء .

واسرع باجتياز الحارة ودلف الى باب البنك الأمامى وايثان ينظر فى اثره مبتسما .

واسرع باتمام الكنس اذ بدأ الناس ينتشرون ، وان لم يحضر

اليه سوى قليل من « الزبائن » معظمهم من الأطفال لشراء خبز او لبن او بن .

ثم اقبلت مارجى الملقبة بالصيادة الشابة ، وكانت مرتدية « سويتر » أبرز صدرها و « جونلة » محكمة مشدودة حول خاصرتيها ، وان كانت عيناها العسليتان هما اللتان راى فيهما ايثان ما لايمكن أن تراه زوجته مما لايكون ماثلا فى حضور الزوجات ، كانت صيادة حقا ، وكانت أقرب الى حيوان مفترس ضار .

ثم كانت نبراتها الناعمة المتحفزة هى التى اكملت الصورة .

قالت له : صباح الخير يا «ايثن» ، ياله من يوم بديع للرحلات الخلوية !

ـ صباح الخير ، أراهن انك محتاجة الى بن .

ـ خانك الذكاء هذه المرة ، جئت لأقول لك ان مندوب محلات « ب . ب . د » سوف يحضر لمقابلتك .

ـ اننا نشترى سلعنا من محلات « وايلاندز » .

ـ على كل حال قد ابلغتك عن مستر « باجارز » هذا . هل يمكن ان تعطينى كوب ماء ؟ سأتناول قرصين من الأقراص الفوارة.

فذهب ايثان الى المخزن وجاء بكوب الماء ، فوضعت فيه ثلاثة اقراص فوارة وانتظرت حتى ذابت ثم شربتها ، فقال لها :

ـ سمعت انك سوف تقرئين الطالع لمارى اليوم .

ـ يا الهى ! اننى نسيت ، بامكانى اذا مارست هذه المهنة ان اجمع ثروة .

ـ أن مارى تعشق هذه العملية ، هل انت بارعة فيها ؟

ـ لابراعة هناك ، ما عليك الا أن تدع الناس ـ خصوصا النساء ـ يتكلمون عن انفسهم ، ثم تكرر لهم الكلام ، فيتوهمون انك تعرف الغيب ، أما الرجال فامرهم يحيرنى ، لماذا لا تعلمنى احوال الرجال يا ايثان ؟

ـ انت تعرفين عنهم ما فيه الكفاية ، وربما اكثر من الكفاية .

ـ آه ، اراك تسرف فى ظنونك .

ـ هل تحبين أن ابدأ الآن ؟

ـ ربما يكون الأفضل مساء .

ـ حسنا ، سنكون جماعة ، مارى وانت والأولاد ، وموضوع التعليم هو الرجال : نقط الضعف فيهم ، ومواطن الغباوة ، وكيفية تسخيرهم واستخدامهم .

فتجاهلت مارجي لهجته قائلة :
ـ الا تشتغل قط مساء ـ حسابات آخر الشهر مثلا ؟
ـ بالطبع ، اننى آخذ الأوراق الى المنزل .
فابتسمت قائلة :
ـ هل تعرف ماسوف افعله؟ سوف اقرأ طالعا هائلا هذا الصباح، وسوف تكون شخصا عظيم الشأن ، وكل شيء تلمسه سوف يتحول الى ذهب ـ سوف تكون زعيما بين الرجال .
وتحولت مسرعة الى الباب واضافت باسمة :
ـ اننى اتحداك ان تكذب تنبؤاتى ... الى اللقاء يا بطل !
ولكنه لم يفته أن يستشف فى رنين عقبى حذائها على الرصيف علائم الغضب .
وما أن حلت الساعة العاشرة حتى تغير كل شيء ، فقد فتحت أبواب البنك الزجاجية وتدفق الناس يغترفون النقود ويجيئون بها الى محل مارولو لشراء مختلف الأطعمة ولوازم عيد الفصح. وظل ايثان غارقا فى العمل حتى دقت ساعة المطافىء فى برج البلدية معلنة الظهر ، فأغلق أبواب المحل وانزل الستائر الخضراء حتى شملت المكان عتمة لم يبددها سوى ضوء الثلاجة الأزرق القاتم.
وما كاد يفرغ من اعداد الشطائر التى اوصى بها جومورفى صراف البنك حتى سمع صرير مفتاح فى قفل الباب الأمامى ، ودخل مارولو بهيكله الضخم كهيكل الدب وفى صدره المنتفخ حتى بدت ذراعاه قصيرتين بالنسبة الى جسده ، وكانت قبعته مائلة عن رأسه الى الخلف حتى بدا شعره المنتصب الأشيب مثل قلنسوة ، وكانت عيناه نديتين ناعستين تشفان عن المكر ، وبدت أسنانه الأمامية المكسوة بالذهب ذات بريق فى الضوء المحدود ، وقال وقد شبك ابهاميه السمينتين فى طيات بنطلونه تحت بطنه ردا على تحية ايثان :
ـ حسنا يافتى ، اراك اسرعت باغلاق المحل .
ـ البلدة كلها اغلقت ، حسبت انك ذهبت لحضور القداس . هل هناك ما يمكن أن اقوم به ؟
فرفع الرجل ذراعيه القصيرتين السمينتين وحركهما قائلا :
ـ زاد الألم فى ذراعى يافتى ، هو الروماتزم .
ـ الا يمكن عمل شيء ؟
ـ اننى افعل كل شيء ـ « كمادات » ساخنة ، زيت القرش ، اقراص الدواء ـ لكن الألم لايزال موجودا ، احسنت باغلاق المحل،

هذه فرصة للكلام بينى وبينك يافتى .
ـ هل هناك اى تقصير ؟
ـ تقصير ؟ واين يكون التقصير ؟
ـ حسنا ، اذا انتظرت دقيقة فاننى سأذهب بهذه الشطائر الى البنك ، حيث طلبها مستر مورفى .
ـ انت فتى همام ، انك تقوم بالخدمة ايضا ، وهذا شىء جميل.
وعندما رجع ايثان بعد تسليم الشطائر وجد مارولو يحدق فى وعاء للقمامة ، وما لبث ان تناول بعض اوراق الخرشوف الملقـــاة فى الوعاء قائلا :
ـ انك تنزع قشورا كثيرة .
ـ الغرض جعل الخرشوف يبدو جذابا .
ـ الخرشوف يباع بالوزن ، وانت بهذا ترمى النقود فى القمامة. اننى اعرف يونانيا حاذقا له عشرون مطعما يقول ان سر المهنة فى مراقبة اوعية القمامة ، ان ما تلقيه كنفاية تخسره كمبيعات ، انه شخص حاذق فعلا .
فقال ايثان : مضبوط يامستر مارولو .
ـ وهل ترش الخضر بالمـاء كما قلت لك ؟
ـ بالتاكيد .
فرفع صاحب المحل خسة قائلا :
ـ هـــبـــلـه تبدو جافة .
ـ يا مغيث يا مارولو ! لايمكن ان تتشبع بالماء اكثر من هذا ، المـاء يكاد يبلغ ثلث وزنها !
ـ الماء يجعلها طرية ، طازجة ، هل تظن اننى اجهل اصـــول العملية ؟ اننى بدأت بعربة يد ، واكتسبت الخبرة ، لابد ان تتعلم اسرار المهنة يافتى ، والا افلست ،والآن ما حكاية اللحوم ؟ اراك تشترى باسعار عالية .
ـ اننا نعلن عن تقديم لحوم ممتازة .
ـ وارى ايضا « بواقى » لحوم مستغنى عنها فى الثلاجة .
ـ هى شحوم وزوائد .
ـ لابأس بهذا اذا تم الوزن للجمهور قبل قطع الشحوم والزوائد. لابد ان تتعلم يافتى .
شعر ايثان بالغضب يتملـــكه فجأة ، حتى قال :
ـ انا لست نحاتا يا مارولو !

ـ المسألة مسألة عمل ، والعمل الناجح هو الذى يربح ، هل تظن ان مستر بيكر يوزع اموال البنك مجانا ؟

وعندئذ غلت مراجل الغضب فى صـــدر ايثان حتى لم يتمالك ان راح يقول صائحا :

ـ اسمع ياسيدنا ، ان عائلة هاولى مقيمة هنا منذ اكثر من مائتى سنة ، وانت اجنبى ، ولا يمكن ان تفهم حياتنا ، وعلى مدار السنين كنا نتعايش مع مواطنينا ونخالقهم بالخلق الطيب ، والمعاملة الكريمة ، واذا كنت تظن ان قدومك من جزيرة صقلية يمكن ان يغير شيئا من هذا فانت واهم ، وان كنت تريد وظيفتى هنا فانا متنازل عنها منذ الآن ، ولا تقل لى «يافتى» ، والا لطمت انفك !

فقال مارواللو وقد عادت ثناياه المذهبة الى الابتسام :

ـ لاباس ، لاباس ، لا تفقد صوابك ، اننى احاول فقط ان افيدك بنصائحى ، انا لا اجيد الانجليزية كما يجب ، ولـكن يمكننى ان اقول ان هويتى يرجع تاريخها الى الفى او ثلاثة آلاف سنة . ان اسم مارواللو اسم عريق أصله من روما ، ما هى قيمة مائتى سنة بالنسبة لهذا ؟

ـ انت لست من اهل هذه البلاد .

ـ ومنذ مائتى سنة لم تكن انت من اهلها ايضا .

لم يلبث ايثان ان انحاز الى الهدوء وقد ذهب عنه الغضب ، فقال بلهجة اقل حدة :

ـ ما كان يصح ان تتكلم بلهجة الأسياد .

ـ المسألة مسألة عمل ، واننى اعلمك اسرار العمل ، ثم ان سنى ثمانية وستون عاما ، وزوجتى توفيت ، وآلام الروماتزم تحاصرنى ، واذا لم تفهم اسرار العمل تعرضت للافلاس .

ـ لا لزوم لتوبيخى لأننى افلست مرة .

ـ انت مخطىء ، اننى فقط احاول ان اعلمك اصول العمل الناجح حتى لا تفلس مرة اخرى .

فقال ايثان وقد عاد الى الابتسام :

ـ حسنا ، وما الذى تريد ان تعلمنى من اصول العمل مما لا اعرفه ؟

ـ العمل يعنى المال ، والمـال لايعرف المجاملة ، المـال لا يطلب الصداقة ولـكن يطلب المزيد .

ـ هذا كلام فارغ يا مارواللو ، اننى اعرف الكثيرين من الأصدقاء الطيبين ، وهم رجال اعمال شرفاء .

ـ هذا فقط بعيدا عن الممارسة الفعلية للأعمال ، والأيام وحدها سوف تكشف لك عن ذلك ، وعندما تكشف لك عنه سيكون ذلك بعد فوات الأوان ، اننى أعلمك دروسا حقيقية كما لو كنت فى مدرسة . الى اللقاء يافتى .

وثنى مارولو ذراعيه وأسرع خارجا من الباب الأمامى وصفقه خلفه ، حتى شعر ايشان بوحدة ووحشة .

ولم يكد يفيق حتى سمع طرقا حادا على الباب الأمامى، فازاح الستار جانبا وقال .

ـ المحل مغلق حتى الساعة الثالثة .

ولكن الغريب دخل ، كان شابا مليئا فارعا أنيق الملابس مصقول الشعر زئبقى النظرات بادى البشاشة ، وقال من فوره :

ـ آسف لازعاجك ، كان لابد لى من مقابلتك على انفراد ، حسبت ان الرجل العجوز لن يخرج أبدا .

ـ مارولو ؟

ـ نعم ، كنت واقفا عند الشارع أنتظر ، اننى قابلت صديقا لك فى الليلة الفائتة ، مسز يونج هانت ، مارجى .

ـ آه !

ـ انت شاب لطيف ، انها امتدحتك كثيرا ، وهذا ماجعلنى أعتقد ... اسمى بيجارز ، وانا المندوب المتجول لشركة « ب . ب . د . » للمواد الغذائية .

ـ اننا نتعامل مع شركة « وايلاندز » .

ـ أعرف هذا ، وهو سبب حضورى الى هنا ، نحن فى هذه المنطقة منذ مدة قريبة ، ونريد توسيع معاملاتنا ، ولابد أن نقدم بعض التنازلات لكى نتمكن من تثبيت اقدامنا ، وسوف تستفيد اذا انتهزت هذه الفرصة .

ـ عليك أن تقابل مارولو .

فقال الرجل بصوت ودى خفيض :

ـ انت الذى تباشر طلبات الشراء ؟

ـ نعم . ان مارولو مريض بالروماتزم ، وفضلا عن ذلك فله مصالح أخرى .

ـ المهم انك انت الذى يباشر طلبات الشراء ، بامكانى منحك خصم ٥ فى المائة .

ـ مارولو قد يقبل هذا اذا كانت البضاعة من نفس الأصناف.

ـ انت لم تفهمني . لا اريد مارولو . ان هذه الـ ٥ في المائة ستكون نقدا ـ لاشيكات ، ولا سجلات ، ولا متاعب مع رجال الضرائب ، مجرد بنكنوت جديد من يدي الى يدك ومن يدك الي جيبك .

ـ حسنا ، وماذا اذا أخذت الـ ٥ في المائة وحولتها الي مارولو؟

ـ اظنك لا تعرف هؤلاء الناس كما اعرفهم . اذا حولت اليه القيمة ، فسوف يتساءل في نفسه عن البقية التي حجزتها لنفسك. هذا شعور طبيعي .

فقال ايثان بصوت خفيض :

ـ هل تريد مني ان اغش الرجل الذي اعمل عنده ؟

ـ واين الغش هنا ؟ انه لن يخسر شيئا ، وسوف تجني انت ربحا ، كل انسان له حق في أن يجني ربحا ، فكر جيدا يابني . فكر ان كان يمكنك تحويل طلبات الشراء الى جانبنا . سوف أعود لزيارتك بعد عودتي الى المنطقة . انني اقوم بهذه الدورة كل اسبوعين . هاك بطاقتي .

ظلت يد ايثان الى جانبه. فوضع بيجارز البطاقة فوق الثلاجة قائلا:

ـ واليك تذكارا صغيرا نقدمه لأصدقائنا الجدد .

واخرج من جيبه محفظة جلدية انيقة ووضعها الى جانب البطاقة قائلا :

ـ هدية لطيفة تنفع لرخصة القيادة ، والبطاقات .

لم يرد ايثان ، فمضى بيجارز يقول :

ـ سوف أعود بعد اسبوعين . عندي موعد مع مارجي . فكر جيدا . انت شاب ذكي . سأذهب الآن .

وفجأة اقترب من ايثان وهمس في اذنه :

ـ لا تكن أبله . كل انسان يفعل هذا .

وخرج مسرعا واغلق الباب خلفه بهدوء .

وساد سكون لم يتخلله سوى صوت محرك الثلاجة . ولم يلبث ايثان أن تلفت الى « شهوده » المتراصة على الأرفف من مختلف المعلبات قائلا :

ـ كنت احسبكم اصدقائي ! لم ترتفع يد بينكم للدفاع عني !

واستدار على صوت طرق متواصل على باب الحارة ، فتقدم اليه على عجل وهو يغمغم لنفسه :

ـ « زبائن » اكثر مما لو كان المحل مفتوحا .

دخل عليه جو مورفى ممسكا بحلقه قائلا :

ـ باللهعليك الا ماأغثتنى بزجاجةكوكا ، انى اكاد اموت عطشا. لماذا هذا الاظلام ؟ أم ان نظرى مسه الضعف ؟

ـ اننى انزلت الستائر للتخلص من رجال البنوك العطشى !

وقاده عائدا الى الثلاجة حيث أخرج زجاجتين مثلجتين جدا قائلا :

ـ أظن اننى سآخذ واحدة لنفسى .

واستند جو مورفى الى الثلاجة ولم يتكلم الا بعد أن افرغ نصف الزجاجة فى جوفه ، وبعدها هتف قائلا :

ـ ما هذا ؟ من اين لك هذه المحفظة الثمينة ؟

ـ هى هدية من مندوب شركة « ب. ب. د. » للمواد الغذائية. انه يحاول أن يضمنا الى نطاق عملائه .

ـ انها هدية ثمينة فى الواقع يابنى ، وارى حرفى اسمك منقوشين عليها بالذهب ايضا !..

ـ صحيح ؟

ـ تعنى انك لا تعرف ؟

ـ انه تركها منذ دقيقة لا اكثر .

فتح جو المحفظة ، واذا أصابعه تخرج منها ورقة بنكنوت جديدة فئة عشرين دولارا ، فقال :

ـ كنت أعرف انهم سوف « يزحفون » الى هذه المنطقة ، لكن لم أعرف انهم سيصلون « بالدبابات » . هذا تذكار يجعل الانسان يتذكر فعلا .

ـ هل كانت هذه الورقة فى المحفظة ؟ ..

ـ وهل تظن اننى زرعتها فيها ؟

ـ جو . اريد أن اتكلم معك . ان ذلك الشخص عرض على ٥ فى المائة عن كل طلب شراء يكون من نصيبهم .

ـ مرحى ! اليسر والرخاء أخيرا ! يجب أن توزع الكوكا مجانا. هذا يومك !

ـ لعلك لا تقصد ان على أن آخذها ...

ـ ولم لا ، اذا كانوا لايضيفونها الى السعر ؟ من الخاسر ؟

ـ طلب منى الا اخبر مارولو والا ظن اننى احصل على اكثر من هذه القيمة .

ـ سيظن ، هذا فعلا . ماذا دهاك ياهاولى ؟ هل جننت ؟ هل تفكر فى طرد هذه النعمة ؟

ـ اننى قاومت نفسى لئلا اقذف به الى الشارع .

ـ لاشك انك تهذى !

ـ قال لى ان كل انسان يفعل هـــذا .

ـ وليس كل انسان يمكنه الحصول على مثلهـــا . انت من المحظوظين .

ـ ليس هذا من الأمانة .

ـ وكيف لا ؟ من المضرور ؟ ليس هذا ضد القانون .

ـ تعنى انك كنت تأخذها ؟

ـ آخذها ؟ ! لو كنت مكانك لركعت مستجديا . فى مهنتى أرى جميع المنافذ مسدودة . كل خطوة تخطوها فى البنك معدودة ضد القـــانون ـ اللهم الا اذا كنت رئيسا . ماذا اصابك يابنى ؟ لو كنت تأخذ الهدية من الغير ماوللو لقلت لك ان هـــذا مخالف للاستقامة ، لكنك لا تفعل هذا . انك تؤدى لهم خـــدمة ، وهم يقدمون لك خدمة مماثلة ـ فى شكل ورقة خضراء جميلة !.. لاتكن أبله . لك زوجة وأولاد تفكر فيهم . ان تربية الأولاد لن تـكون عملية رخيصة .

ـ ليتك تذهب عنى الآن .

فوضع جو مورق الزجاجة على المنصة بعنف قائلا ببرود :

ـ مستر هاولى ـ لا ، مستر ايشان آلين هاولى . لو كنت تظن اننى يمكن ان افعل شيئا مخالفا للأمانة او اقترح عليك شيئا كهذا فلتذهب الى الجحيم ! ..

وسار جو عائدا أدراجه . فقال ايشان :

ـ لم اقصد هذا . اقسم لك ان هذا لم يكن قصدى ياجو . المسألة هى اننى تلقيت اليوم اكثر من صدمة . هذا عيد شنيع !

ولكن جو مورق انسحب من الباب الخلفى وجذبه خلفه بهدوء .

ولم يلبث ايشان ان رفع الستائر وفتح المحل من جديد ، لـكن المعاملات لم تكن كثيرة فى هذه الفترة ، وخلت الشوارع أو كادت من الناس ، وقبيل موعد الاغلاق لم يتردد عليه أحد . وبعد أن اغلق المحل وهم بالابتعاد تذكر قائمة الأصناف المطلوبة للمنزل ، فاضطر الى العودة وجمع المواد فى كيسين كبيرين واغلق المحل من جديد وقد خامرته رغبة لـكى يهيم شطر خليج الميناء ويراقب الأمواج

الداكنة ويشم رائحة البحر ويتحدث الى طائر «نورس» يراه واقفا على عائمة ومنقاره فى الهواء ، متاثرا فى هذا بقصيدة كتبتها سيدة منذ عهد بعيد عن احاسيسها حيال هذا الطائر الفريد . بيد ان ثقل اكياس لوازم العيد ثناه عن رغبته تلك ، وهكذا سار متثاقلا فى شارع « هاى » ومنه الى شارع « ايلم » متجها الى بيت هاولى العتيق .

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الفصل الثاني

تركت مارى الموقد واخذت من زوجها احد الكيسين الكبيرين قـــــائلة :

ـ عندي اخبار كثيرة لك . لا يمكنني الانتظـــار .

فقبلها ، ولمـا احست بتوتر شفتيه قالت له :

ـ ماذا هناك ؟

ـ اشعر ببعض التعب .

ـ لـكنك أغلقت المحل ثلاث ساعات .

ـ كانت عندى اعمال كثيرة .

ـ ارجو الا تـكون مكتئبا .

ـ كان يوما فيه كآبة .

ـ بل كان يوما رائعا . انتظر الى ان تسمع مني .

ـ أين الأولاد ؟

ـ فوق مع الراديو . عندهم ايضا اخبـــار لك .

ـ مشـاكل ؟

ـ لمـــاذا تقول ذلك ؟

ـ لا أعرف .

وفى هذه اللحظة هرع الان وايلين بهبطان السلالم متواليين واسرعا الى المطبخ يرحبان بعودته . وقال الصبى :

ـ بابا . عندك فى المحل علبة الحبوب التى لها غطاء على شكل قناع فأر . أريد واحدة .

وقالت ايلين :

ـ اذا أرسلت غطاء العلبة مع عشرة سنتات فانك تحصل على جهاز التكلم البطنى مع الارشادات الخاصة به . اننا سمعنا هـذا الآن فى الراديو .

فقالت مارى لابنها :

ـ قل لأبيك ما الذى ستفعله ؟

ـ اننا سنشترك فى مسابقة « احب امريكا » ، وجائزتها الســفر

الى واشنطن ومقابلة الرئيس ـ مع الوالدين ـ الى جانب جوائز أخرى .

فقال ايثان :

ـ بديع . ما هي المسابقة ؟ ماذا يجب أن تفعل ؟

فهتفت ايلين قائلة :

ـ يجب كتابة موضوع عنوانه : « لماذا تحبه أمريكا » . وجميع الفائزين سوف يظهرون فى التليفزيون .

وقال آلان :

ـ ثم رحلة واشنطن ، والفندق ، واللاهى ، ومقابلة الرئيس ، والألعاب النارية . ما رأيك فى هذا كله ؟

ـ وما رأيك فى أعمال المدرسة ؟

ـ سيكون هذا فى الصيف. ستعلن أسماء الفائزين فى عيد يوليو.

ـ فى هذه الحالة لا بأس، هل تحبان أمريكا فعلا، أم تحبان الجوائز؟

فقالت مارى :

ـ آه يا بابا !.. لا تفسد عليهما هذه المتعة !

وقال آلان : قل لى يابابا. أين يمكن أن نبحث عن هذا الموضوع؟

ـ تبحثان عنه ؟ !

ـ نعم . هذا ما قاله لى بعض الأولاد ...

ـ ان جدكم الأكبر كانت عنده كتب عظيمة . وهى موجودة فى غرفة السطح .

ـ مثل ماذا ؟ ..

ـ مثل خطب لنكولن ، وكتب دانييل ويبستر وهنرى كلاى . ثم هناك مارك توين أيضا . كل هذه الكتب والمراجع موجودة فى غرفة السطح .

ـ ربما أمكنك مساعدتنا فى كتابة الموضوع .

ـ فى هذه الحالة لن يكون الموضوع من الشائك .

ـ على كل حال لا تنس احضار علبة الحبوب ذات القناع .

ـ سأحاول .

ـ هل يمكن أن تذهب الى السينما ؟

فقالت مارى :

ـ ظننت انكما ستقومان بتلوين البيض لعيد الفصح . انى أغليه الآن . بامكانكم بعد الغداء أخذه الى الباب لتجفيفه فى الشمس يا ماما .

ـ هل يمكن يا ماما أن نصعد الى غرفة السطح ونرى الكتب؟
ـ اذا اطفأتم النور فيما بعد . فى المرة السابقة ظل النور مضاء لمدة اسبوع . انك انت الذى تركت النور هكذا يا ايثان .
وعندما ذهب الصبيان قالت مارى :
ـ السنت مسرورا باشتراكهما فى المسابقة ؟
ـ بالتأكيد ، اذا فعلا كما يجب .
ـ اننى لا اطيق الانتظـــار لابلاغك ـ فان مارجى قرات طالعى اليوم ثلاث مرات ، لانها قالت انها لم تشهد من قبل شيئا كهذا ثلاث مرات !
ـ يا الهى ! اسمعى يا مارى . اريد ان احلرك .
ـ اسمعنى اولا . انها قرات الأوراق وكانت كلها حولك. سوف تكون واحدا من اهم الرجال فى هذه البلدة . ولن يطول هـــذا ايضا . بل سيحدث عاجلا . كل ورقة قلبتها بينت نقودا ونقودا اكثر . سوف تكون رجلا غنيا .
ـ دعينى احلرك ياحبيبتى .
ـ سوف تقوم بعملية استثمار .
ـ بماذا ؟
ـ حسنا . كنت افكر فى المـال الذى ورثته عن اخى .
فهتف قائلا :
ـ لا . لايمكن أن امسه . هذا مالك . وسيظل مالك .
ـ ان مارجى لم تشر الى هذا . سوف تستثمر فى شهر يوليو، وكل خطوة سوف تتلوها خطوة اخـــرى . ان مارجى قالت لى بالحرف الواحد : « ان حظك هو ايثان . سوف يصبح رجلا غنيا جدا ، بل ربما اهم رجل فى هذه البلدة » ...
ـ لعنة الله عليها ! ليس لها حق فى هذا .
ـ انها صديقة مخلصة . لا اريد أن نتخاصم على مسمع من الأولاد . ان مارجى هى افضـــل صـــديقة لى . انا اعرف انك لاتحبها . وفى ظنى انك غيور من اصدقائى . اننى عشت ساعات سعيدة بعد ظهر اليوم ، وانت تريد ان تفسدها على . ليس هذا شيئا لطيفا .
فقال ايثان :
ـ قد يكون ما فعلته مجرد خبث . انها امراة بلا رجل ولاعمل.
فراحت مارى تقول بازدراء :

ـ تكلم عن الخبث دون أن تعرف حقيقة مارجي ولا الظروف التي تمر بها . هناك رجال في هذه البلدة يطاردونها طول الوقت. رجال لهم شأن ، رجال متزوجون ، يهمسون ويغرون !.. وأحيانا لا تعرف مارجي الى أين تتجه هربا منهم . وهـذا هو سبب حاجتها الي ، كصديقة من بنات جنسها . آه ، كم حدثتني بأشياء لا تخطر على البال ، عن رجال لا تصدق أمرهم . بل ان بعضهم يتظاهر بأنهم لايحبونها علنا ، ثم يتسللون الى بيتها أو يتصلون بها تليفونيا لملاقاتهم. رجال منافقون ، يدعون الى الفضيلة والأخلاق ثم يفعلون هذا . وبعد ذلك تكلمني عن الخبث !

ـ هل ذكرت لك من هم ؟

ـ لا . وهذا وحده دليل ضدهم . ان مارجي لا تريد أن تسيء الى أحد حتى ولو اساءوا اليها . لكنها قالت ان بينهم واحدا لايمكن ان اعتقد فيه هذا . قالت ان شعر رأسي قد يشيب اذا عرفت بأمره .

فتنفس ايثان من اعماق رئتيه ، بينما قالت مارى :

ـ ترى من يمكن أن يكون ؟ ان طريقة كلامها عنه جعلتني اعتقد كما لو كان شخصا نعرفه تماما ولا يمكن أن نصدق أمره .

فقال ايثان بصوت خافت :

ـ أظن اننى اعرف .

ـ انت تعرف ؟ من هو ؟

ـ انا .

فغرت فاها ، وقالت :

ـ آه ، يالك من ماكر ! لو لم اكن على حذر منك لأوقعتني كل مرة في الفخ ! على كل حال هذا الهزل خير من الكآبة .

ـ يا للعجب ! رجل يعترف بالتورط في الاثم مع أصدق صديقة لزوجته ، ويقابل بالاستخفاف !

ـ هذا كلام لا يصح أن يصدر منك .

ـ ربما كان يجدر بهذا الرجل أن يلجأ الى الانكار . وفي هذه الحالة كان يمكن أن تحترمه الزوجة وتكرمه ، مع الشك طبعا . ياحبيبتي ـ اقسم لك بكل ما هو مقدس اننى لم يصدر مني سواء بالقول أو الفعل اى شيء خادش للشرف مع مارجي . فهل تصدقين بعد هذا اننى ارتكبت اى اثم ؟

ـ اننى احب المزاح ، لكن هذا ليس شيئا يمزح الانسان فيه .

ـ سـأحاول مرة اخرى يازوجتى الجميلة . هناك فعلا امراة الحرف الأول من اسمها «م» قد طوقتنى بالشباك ، لأسباب تعرفها وحدها . وانا فى خطر داهم من الوقوع فى احدى شباكها .

ـ لماذا لا تفكر فى حظك ؟ ان الأوراق قالت شهر يوليو ، وقالت هذا ثلاث مرات . اننى رايت هذا بعينى راسى . سوف تنال مالا، ومالا كثيرا . فكن فى هذا فقط .

ـ هل تحبين المـال ، والمـال الـكثير يانور عينى ؟

ـ أحب المـال ؟ ما قصدك ؟

ـ هل تحبين المال الى الدرجة التى تبرر فى نظرك كل انواع التنجيم والعرافة والسحر والخزعبلات الخ ؟ ..

ـ تسالنى ان كنت احب المال ؟ واقول لك اننى لا احب المال ، ولـكننى لا أحب ايضا انشغال البال والهموم ، اننىاحب ان اكون فى وضع يسمح لى برفع راسى فى هذه البلدة . اننى لا احب ان يشعر أولادى بالخجل والمذلة لانهم لايستطيعون ان يلبسوا كما يلبس غيرهممن الأبناء .

ـ وهل المـال هو الذى يرفع راسـك ؟

ـ انه يزيل اثر السخرية عن وجوه جدودك المقدسين !

ـ لا احد يسخر من عائلة هاولى .

ـ هذا ما تظنه . ولـكن فقط لا تراه .

ـ ربما لأننى لا اتسقط ولا افتش .

ـ هل مفاخرك العائلية سلاح تشهره فى وجهى ؟

ـ لا ياحبيبتى . انها لم تعد سلاحا نافعا .

ـ الحمد لله انك اكتشفت هذا . فى هذه البلدة او فى اية بلدة اخرى فان بائع محل البقالة سـليل اسرة هاولى هو مجرد بائع محل بقالة .

ـ هل تلومیننى لفشلى ؟

ـ لا . بالطبع لا الومك . انما الومك فقط لجلوسك قانعا تتمرغ فى المجد القديم . بامكانك أن تخرج من هذه الوحدة اذا تخلصت من افكارك العتيقة . كل انسان يسخر منك . ان سليل الحسب والنسب المعدم انسان تافه .

لـكن هذه الـكلمة دوت فى سمعهاكالقنبلة ، حتى سكتت خجلة. فقال ايثان :

ـ انا آسف . لقد علمتنى شيئا ، بل ربما اشياء ـ الواقع ،

والممكن ، والمعقول . لقد عرفت الآن اين اجد المال لكى ابدا اليسر والغنى .

ـ اين ؟

ـ سوف اسرق بنكا .

وفى هذه اللحظة انبعث رنين المنبه المتصل بالموقد ، فقالت مارى:

ـ اذهب وناد الأولاد . ان اناء تلوين البيض جاهز. وقل لهم ان يطفئوا النور .

ووقفت تنصت الى وقع خطواته وهو يبتعد .

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الفصل الثالث

شـــد ما احسد زوجتي مارى على سرعة استسلامها للنوم . فانها لا تكاد تستلقى فى الفراش حتى تتكوم على نفسها وتتنهد مرة واحدة ثم تغمض عينيها وتنفرج شفتاها عن ابتسامة هانئة ، وفى اللحظة التالية تسبح فى عالم الأحلام .

ان مارى تعشق النوم ، والنوم يفتح احضانه لها ترحيبا وحفاوة.

اما انا فانني اصارع النوم والنوم يصارعنى حتى استحال الى معركة ابدية بينى وبينـــه . فاذا نمت كانت احلامى هى متاعب النهار ومشاكله ، تتضخم وتتخذ اشكالا شـــتى اقرب الى اقزام تتراقص ، مرتدية قرون واقنعة حيوانات .

ومن عجب ان عيد الفصح يقترن عندى بالأحزان ، ولـكنه كان هذا العام اسوأ . فاليوم حمل على مارولو حملة شعواء بدعوى تلقيني طبيعة العمـــل واسراره . وبعدها جاء من يقدم الى اول «رشوة» فى حياتى . ثم هانذا امام مشكلة مارجى الملقبة «بالصيادة الشابة » . فهل هى مخلوق شرير ؟ وما غرضها منى ؟

وكم من ليلة امضيتها مؤرقا ساهرا مسهدا وانا اسمع غطيط مارى الرقيق يملأ سمعى . انك اذا ذهبت تحدق فى الظلام لا تلبث ان ترى بقعا حمراء تتراقص امام عينيك . وفى هـــذه الليلة لم اتمالك عندما زادت البقع الحمراء امام عينى ان قررت ان انهض واخرج .

انني من الذين يؤمنون بان الانسان يستطيع ان يحسن التفكير فى مكان خاص يتخذه خلوة . ولهذا كان لى هذا المختلى ، وان كان التفكير عندى يقترن بالأحاسيس والتجارب والذكريات .

هكذا تسللت من الفراش بهدوء وهبطت الى الدور الأرضى حاملا ملابسى التى ارتديتها فى المطبخ . ولـكى لا تقلق مارى لغيابى اذا استيقظت فقد سطرت لها كلمة قلت فيها : « حبيبتى ـ شعرت بقلق ، فخرجت للقيام بجولة ، وساعود سريعا » .

ولما فتحت الباب الخلفى شعرت بالهواء قارسا منذرا بالصقيع ،

فاشتملت بمعطف ثقيل ووضعت فوق رأسي واذني قلنسوة بحار من الصوف . وفي هذه اللحظة دقت الساعة مؤذنة بالثالثة صباحا، ومعنى هذا اننى لبثت اراقب البقع الحمراء في الظلام اربع ساعات منذ الحادية عشرة .

ان بلدتنا « نيو بايتاون » بلدة عريقة جميلة ، بل هي من أعرق واجمل البلدان في امريكا كلها . كان مستوطنوها الأوائل واجدادي من ارباب البحر المغامرين الذين ضاقت بهم أوربا ، فجاءوا الى ساحل امريكا الشمالي واستقروا به ، وتزوجوا في حياتهم ومعاشهم بين القرصنة والانماط « البيوريتانية » . ولكن ابى الطيب القلب كان على نقيض هذه الخصائص ، وهكذا اضاع الأرض، والمال ، والمنزلة، والمستقبل ، والواقع انه ضيع كل ماراكمته اسرة هاولي خلال مئات السنين ، فيما عدا اسم الأسرة الذي كان وحده مناط اعتزازه . وكان ابى حريصا على تلقيني ماسماه « دروس الميراث العائلي » ، وهذا هو سبب معرفتي الوثيقة بتاريخ الأسرة وامجادها . وربما كان ايضا سبب وجودي الآن كاتبا في محل بقالة رجل من صقلية ، في منطقة كانت كلها ملكا لأسرة هاولي .

تواردت في ذهني هذه الخواطر لمجرد اننى قلت ان بلدتنا عريقة جميلة . لقد جمعت مبانيها بين القديم والحديث ، خصوصا تلك المنازل العصرية التي اقامها احفاد صيادي الحيتان في شارع بورلوك وولتي والتي احتذوا انماطها متأثرين برحلاتهم البعيدة الى أقصى البحار والأقطار . ولكن بيت اسرة هاولي ظل في شارع « ايلم » محتفظا بطابعه التاريخي العتيق ، الى جانب بيوت آسر بيكر وفيليبس والجار — وان كانت مارى لم تلبث بعد وفاة ابي ان شبعت من سماع تاريخ الأسرة المكرر المعاد ، فاقترحت على نقل مخلفات الأسرة الى غرفة السطح ، ولم امانع في هذا وانا اعرف انها لم تكن من ابناء بلدتنا ولم تتقلب في ذكرياتها ، اذ كانت من اصل ايرلندي ، وكان لقائي بها في مدينة بوسطن وانا ضابط برتبة الملازم اثناء الحرب العالمية الأخيرة ، وظلت وفية على عهدها معي طيلة الحرب ، وبعد زواجنا كانت مثال الاحتمال والصبر اثناء السنوات التي تعرضت فيها للانتكاس والافلاس ، ثم طوال وجودي بائعا في محل بقالة . ان مارى تحتمل وتصبر على الشدائد ، ولكنني اعتقد الآن انها تعبت من طول الاحتمال والمصابرة . ولهذا قد لايكون من المستغرب ان يتهاوى احتمالها فجاة وينهار صبرها على تلك الصورة التي

اسلفت .

ومهما يكن فاننى تابعت سيرى فوق الأرض المكسوة بالصقيع المتلالىء كالماس تحت انعكاس ضوء المصابيح متجها الى الميناء القديم . وفى الطريق بعد تقاطع شارع بورلوك وهيكس قرب مصنع الدراجات ، وقع نظرى على آثار واضحة لا تخطئها عينى المدربة فوق الصقيع المصقول المتجمد : بصمات خطا دانى تيلور الواسعة المتثاقلة ، دانى سكير البلدة ، سليل الاسرة الكريمة العريقة ، المتعلم الفاشل ، المطرود من الاكاديمية البحرية ، وصديق العمر كله. لماذا لايستقيم دانى المنكود ؟ انه يقتل نفسه قتلا بادمانه الخمر . وباله من عار يلحق به وبأسرته اذ يستجدى ثمن الشراب استجداء. مما يعزى ان ابويه لم يبقيا على قيد الحياة لكى يقع نظرهما على بؤس حاله وسوء مآله .

ان دانى يمثل عندى جرحا داميا متجددا وحزنا مقيما لا يفتر وطالما حاولت مساعدته والأخذ بيده ، لكنه كان ولايزال يأبى على هذا باصرار . ان دانى بمثابة أخ لى ، فنحن متماثلان فى العمر والبنية . وأسرته عريقة مثل أسرة هاولى او اسرة بيكر وغيرهما . وفى صبانا لم تكن نفترق لحظة فى مجال المرح واللعب ، وفى ظنى اننا لو ذهبنا الى الكلية معا لما حدث هذا . فقد التحقت انا بجامعة هارفار ، ونبغت فى اللغات ، والعلوم الانسانية ، واغترفت من مناهل معرفة لم تعد ذات جدوى لمن عمل بائعا فى محل بقالة ، كما تطور اليه أمرى ، لكننى طالما اشتهيت لو ان دانى لازمنى فى هذه الرحلة الثقافية الباهرة الممتعة . ولكن دانى كان يعشق البحر بطبعه . وقد التحق بالاكاديمية البحرية معززا بنفوذ ابيه ، بيد انه لم تنقض ثلاث سنوات حتى طرد منها ، مما عجل بنهاية أبويه ، ولم يبق منه الآن سوى ذلك الشبح السكير الذى يهيم على وجهه فى الليالى ، وحيدا ، يجر قدميه جرا . وعندما يستجديك نصف دولار ثمنا للشراب تناديك عيناه بالصفح عنه ، لأنه لايستطيع الصفح عن نفسه . وهو ينام فى كوخ حقير قرب مصنع السفن القديم الذى كان مملوكا لأجداده . وعندما تمعنت الآن فى آثار الأقدام لأرى ان كان عائدا الى مثواه أوخارجا منه رأيت الآثار تشير الى خروجه ، وقد التقى به فى أى مكان .

كانت وجهتى الميناء القديم كما قدمت . فيه كانت ترسو سفن صيد الحيتان منذ مئات السنين عائدة من رحلاتها السنوية عبر

البحار القطبية وبحار الصين محملة بانقى زيوت حيتـــان العنبر وانفس السلع . اما الآن فلم يبق من هذه المعالم القديمة سوى الاطلال والذكريات ، واخصها تلك الصور الجميلة المشرقة التى طالما صورها لي جدى كابتن هاولى وانا بعد طفل صغير ، مستعينـــا بعصاه المشكلة من قرن ، حوت العنبر . ومن تلك الاطلال ذلك الـكهف الصخرى الصغير القابع على مسافة عشرة اقدام من مياه الشاطىء : وهو ملاذى الذى جعلته مختلى ، الوذ به بعيدا عن الاماكن المطروقة كلما حز بى أمر من الأمور . وفيه كنت امضى ساعات من ليلى قبل انخراطى فى الخدمة العسكرية ، ومثلها قبل اقترانى بمارى ، ومثلهـــا ليـــلة أن ولدت ايلين ولادة متعسرة . فيه كنت أجلس الساعات المتعاقبة اصـــيخ السمع الى الأمواج الصغيرة تلعق جدرانه الصخرية وأستشرف البحر الطليق من خلال مدخله .

كانت التغييرات الـكبرى التى تطرأ على حياتى هى التى تأخذنى الى هذا المختلى .

هكذا هبطت الآن الى هذا الـكهف الصغير وجلست القرفصاء على أرضه وكأننى تمثال لبوذا .

ورب قائل يقول ان فى هذا بلاهة ، لـكننى لا ابالى . فأحيانا يكون من المتع الـكبيرة فى حياة الانسان أن يتعلق بالبـــلاهة أو السذاجة او سمها ماشئت ، كالأطفال يلعبون التماثيل ويموتون من الضحك . بل ان التعلق بهذا الذى يعد من البلاهة والسذاجة يقتل الرتابة ويجلو صدأ النفس ويعين على شحذ الهمة من جديد. وكذلك كنت كلما مسنى الضيق وكربنى أمر من الأمور لعبت لعبة البلاهة والسذاجة هذه ، دفعا لعدوى الـكرب ان تتسلل الى عزيمتى . وما اكثر هذه الـكروب التى الفيتها الآن تجابهنى . فان زوجتى مارى مثلا لاتزال سرا أمامى لم أنفذ بعد الى مغالقه . ولا اظن انها تعرف هذا المختلى لأننى لم اخبر أحدا بأمره . فهو مكان أتدبر فيه الأمور وأدير فيه الفكر . فما من انسان يعرف غيره من بنى البشر حق المعرفة ، وقصارى ما يبلغه هو أن يفترض انهم بشر مثله ..

وفى خلوتى الآن فى هذا الملاذ بمنأى من غائلة الرياح والمد يتسلل الى الـكهف قاتما تحت سماء مظلمة ، لم أتمالك أن رحت أتساءل : ترى هل لكل الرجال مختلى كهذا ؟ أو هم بحاجة الى مختلى ،

أو يريدونه ولكن لايجدونه ؟ أحيانا كنت ارى نظرة فى الأعين ، نظرة حيوان ملهوف ، كمن يحتاج الى مكان سرى هادىء تجد فيه النفوس المضطربة سكنا لها ، حيث يلم الانسان بذاته ويقيم كيانه. والواقع اننى أسمى كل ما يعرض فى المختلى « عملية تقييم » . ومن الناس من يسمونها « صلاة » ، ولعل الاثنين ان يكونا شيئا واحدا . ومهما يكن من خلاف فى الراى فانها عملية أجد فيها كل الجدوى ، بصرف النظر عن وجه الخطأ او الصواب .

كانت أمامى أمور كثيرة تقتضى التدبر وامعان الفكر ، وكانت تتواثب فى خاطرى ملوحة بأيديها تسترعى الاهتمام كأطفال فى مدرسة. منها موضوع مارى ، التى تركتها هانئة فى نومها وعلى شفتيها تلك الابتسامة الغامضة . كنت أرجو الا تستيقظ وتفتش عنى . لكن اذا فعلت ، فهل تراها تسر الى بهذا ؟ ذلك ما اشك فيه . فى ظنى ان مارى ، على الرغم مما يبدو من انها تقول كل شىء ، لا تقول الا القليل . فهناك موضوع الثروة الذى لابد من تدبر أمره . فهل تريد مارى الثروة لنفسها أو تريدها لى ؟ وكونها ثروة موهومة من بنات افكار ماجى « الصيادة الشابة » لأسباب لا أعلمها لا يغير من الأمر شيئا . فكثير من الثروات لا تعدو أن تكون وهما وسرابا . وأى رجل متوسط الذكاء يمكنه اقتناء المال ان كان هذا ما يريده . واكثر ما يبتغى المال من أجله هو النساء او الملبس او الاعجاب ، وهى فى النهاية تنحرف به عن الجادة . واقطاب المال من أمثال مورجان وروكفلر لم تزغ عقولهم ، فما بغيتهم فى ابسط وجوهها سوى تحصيل المال ، وقد حصلوه . اما ماذا يفعلون به بعد تحصيله فهذا شىء آخر . واغلب ظنى انهم قد لابسهم الردع من هذا الغول الذى أطلقوه ، ولو استطاعوا التخلص منه لما ترددوا .

أما فى عرف مارى فالمال معناه ستائر جديدة وتعليم مكفول لأطفالها ورفع الراس عاليا والافتخار بى بدلا من الخجل منى . لقد قالت هذا فى غضبتها امامى ، وهذا حق لا مراء فيه .

وفيما يتعلق بى ، هل ارانى اريد المال ؟ الحق لا . ان شيئا فى داخلى كان يكره كونى بائعا فى محل بقالة . فى الجيش ارتقيت الى رتبة ملازم ، وان كنت اعرف ان الذى سما بى الى هذا من بين الصفوف هو الأسرة وما لها من روابط ، بيد أننى كنت مع ذلك مثال الضابط الصالح . لكن لو أننى كنت حقا اريد التسلط

وفرض ارادتي على الآخرين والتلذذ بامتثالهم لأوامري ونواهي ، لبقيت في الجيش ، ولبلغت الآن مرتبة الكولونيل. لكنني لم أرد شيئا من هذا ، واستعجلت نفض يدي منه .

ثم هناك موضوع ماروللو . لقد أصاب ماروللو فيما قاله عن العمل ، وكونه الوسيلة لاقتناء المال . وقالها جو مورفي كلمة صريحة لا عوج فيها ولا ابهام ، وقالها أيضا مستر بيكر، ومندوب المبيعات . كلهم قالوها صريحة ساخرة مباشرة . فلماذا تقززت نفسي وكان الأثر الذي تركه كلامهم كأثر البيض الفاسد في المذاق؟ هل أنا شديد الصلاح ، أو شديد الطيبة ، أو شديد الاستمساك بالحق ؟ لا أظن هذا . هل أراني شديد الاعتداد بنفسي ؟ لابأس هناك بعض هذا . هل أنا فاتر الهمة خامد العزم ، ينكل عن الاقدام ويبتعد عن التورط ؟ في الحق هناك قدر كبير من الطيبة السلبية التي ليست شيئا سوى الخمول وايثار البعد عن المتاعب أو الارتباكات أو الجهود المبذولة .

وعندما بلغت هذا القدر من خواطري لاحت لي طوالع الفجر التي تسبق انبلاج الضياء . كانت لدي القدرة على شمها ولمسها. واذن فلا مناص لي من أن أعود ادراجي سريعا . وهكذا غادرت المختلى دون طقوس ولا مراسم كما دخلته ، وسلكت طريقي الى شارع « هاي » وأنا أكاد أجري . ومررت بالنصب التذكاري للجندي المجهول ثم بمبنى البريد فبلمل صادفت داني تايلور واقفا في مدخل أحد البيوت وقد دس يديه في جيوبه ورفع ياقة معطفه ، وكان وجهه في الضوء البازغ مربدا مزرقا من تأثير البرد والاعتلال .

قال لي :

ـ ايثان . انا آسف لازعاجك . لابد لي من بعض الشراب انت تعرف انني ما كنت افعل هذا لولا اضطراري .

ـ أعرف . انني أصدقك .

واعطيته دولارا وأنا أقول :

ـ أهذا يكفي ؟

كانت شفتاه ترتعشان كشفتي طفل يوشك على البكاء ، وقال :

ـ اشكرك يا ايثان . نعم . هذا يكفيني طول النهار، وربما طول الليل .

وبدا أحسن حالا عندما فكر في هذا ... فقلت له :

ـ داني . لابد أن تكف عن هذا . هل تظن انني نسيت ؟ لقد

كنت اخى يادانى . ومازلت أخى . اننى على استعداد لكى اعمل اى شىء فى الدنيا لمساعدتك .

سرى شىء من القلق فى خديه الناحلين . ونظر الى ورقة البنكنوت فى يده وكأنما احتسى أول جرعة من الشراب ، ثم ما لبث ان رمانى بنظرة باردة قاسية قائلا :

ـ ليس لأحد دخل فى شئونى .

ـ اصغ الى يا دانى .

ـ ولأى غرض ؟ اننى اغنى منك واحسن حالا . هل تتذكر بيتنا الريفى ؟

ـ الذى احترق ؟ حيث كنا نلعب فى البدروم ؟

ـ اراك تتذكره جيدا . انه ملك لى .

ـ دانى . بامكانك أن تبيعه وتبدأ بداية جديدة .

ـ لن ابيعه . ان الحكومة تقتطع جزءا من الأرض كل سنة استيفاء للضرائب . لكن المراعى الكبيرة حوله لاتزال ملكى .

ـ لماذا لا تبيعها ؟

ـ لانها أنا . هذه الأرض هى دانى تيلور . طالما عشت فلن يجيئنى شخص رقيع يملى على ما أفعل ويتسلط على بدعوى مصلحتى . هل فهمت ؟

ـ اصغ يادانى ...

ـ لن أصغى . ان كنت تظن هذا الدولار يعطيك الحق فى ان تعظنى فخذه .

ـ احتفظ به .

ـ سأفعل . انت لا تعرف ما تتكلم عنه . انك لم تكن ابدا سكيرا . اننى لم أقل لك مرة كيف تلف اللحم المقدد . والآن اذا ذهبت فى طريقك فاننى سأطرق نافذة واطلب بعض «مطيرالعقول» . ثم لا تنس اننى احسن منك حالا . انا لست بائعا .

وتحول عنى ودس رأسه فى زاوية المدخل المغلق مثل طفل يلغى الدنيا كلها من وجوده بمجرد تحويل نظره عنها . وقد ظل كذلك الى ان يئست وواصلت سيرى .

ولما وصلت الى بيتى صعدت السلالم الخلفية بهدوء واضات نور المطبخ . فوجدت الكلمة التى تركتها لزوجتى بعيدة قليلا عن وسط المنضدة ، وان كنت اكاد أقسم أننى تركتها فى الوسط تماما .

وضعت اناء القهوة على النار وجلست انتظر نضجها ، فلم تكد

حتى جاءت مارى . ان حبيبتى تبدو كفتاة غضة عندما تستيقظ، حتى لتستبعد أن تكون اما لصبيين نامـــيين . وان بشرتها لتفوح منهارائحة زكية ، كرائحة عشب قطعته وشيكا ، وهى ازكى رائحة عرفتها .

قالت لى : ماذا تفعل فى مثل هذا الوقت المبكر ؟

ــ لك حق فى سؤالك . اننى كنت مستيقظا معظم الليل. انظرى الى حذائى المبتل قرب الباب .

ــ واين كنت ؟

ــ هناك قرب البحر كهف صـــغير زحفت اليه يابطتى ورحت اراقب الليل والنجوم . فرايت نجما يخرج من البحر ، ولمـا لم يكن صاحب فقد أعتبرته نجمنا . اننى روضته ثم أعدته الى مكانه لـكى يسمن .

ــ ها قد عدت الى الهزل والبلاهة . اظن انك استيقظت فقط، وهذا ما ايقظنى من نومى .

ــ ان لم تصدقينى فاسألى داتى تيلور . اننى اعطيته دولارا.

ــ ما كان يجب أن تفعل . سوف يسكر به .

ــ اعرف هـــذا . كانت هذة رغبة . اين ينام نجمنا يازهرتى العطرة ؟

ــ يسرنى انك عدت الى الهزل والبلاهة من جديد . فانت بشع عندما تكتئب .انا آسف لما قلت لك أمس عن الحظ والمال . لا اريد أن تظن اننى غير سـعيدة .

ــ لا تشغلى بالك . هذا مكتوب لنا فى الطالع .

ــ ماذا ؟

ــ لست امزح . سوف احقق الطالع واجمع الثروة .

ــ اننى اتعب فى متابعة تفكيرك .

ــ هذه هى مشكلة قول الصدق . هل يمكن ان اضرب الأولاد « علقة » صغيرة للاحتفال بالعيد ؟ اعدك اننى لن اكسر عظامهم .

ــ انا لم اغسل وجهى . جئت مسرعة لاننى لم اتصور من كان يخبط فى المطبخ !

وعندما ذهبت الى الحمام وضعت الورقة فى جيبى وانا مازلت لا اعرف هل رأتها أم لا . وهل يستطيع انسان أن يعرف دخيلة المراة ؟ ما هى دخيلتك يا مارى ؟ هل تسمعين بالله ؟

الفصل الرابع

جاء يوم السبت هذا مختلفا عندى عن غيره من الأيام . كنت كل يوم أكره أن أذهب لفتح محل البقالة . ولكننى اليوم شعرت بميل واقبال على هذه العملية .

وقد قالت لى مارى معقبة :

ـ هل تخرج هكذا مبكرا ؟ أمامك نصف ساعة قبل الموعد . هذا نتيجة تبكيرك اليوم .

فقلت لها : هناك صناديق كثيرة لابد من فتحها ، واشياء اكثر لوضعها على الرفوف قبل موعد الفتح . وأمامى قرارات خطيرة . هل أضع علب المخللات والطماطم على نفس الرف ؟ وهل لو وضعت معلبات المشمش والخوخ على رف واحد تتشاجر ؟.. انت تعرفين أهمية التنسيق بين الألوان المطبوعة على الفساتين ...

فقالت مارى : انت تمزح فى كل شىء . لكننى مسرورة فهذا افضل من التذمر . اكثر الرجال يتذمرون .

كانت البلدة هادئة اليوم ، ولكن الكثيرين غادروها بالطبع فى عطلة عيد الفصح .

وصادفت فى طريقى ستونى سميث شرطى النهار خارجا من مطعم فورماستر بعد شرب القهوة . كان ستونى هو الذى يباشر أعمال الشرطة فى البلدة ، وكان رجلا ذكيا تمرس على أحدث الأساليب البوليسية وتلقى دراسة خاصة فى المباحث الفيدرالية بواشنطن ، ومن ثم كان مرهوب الجانب ، بعكس زميله وى ويلى الذى كان يتولى الحراسة الليلية فى سيارة الشرطة ، فيمضى أغلب الليل نائما.

قلت له وانا اتطلع الى مسدسه وقيده الحديدى التى برزت حول جانبيه :

ـ عندنا عمل كثير اليوم ياستونى .

فرد قائلا : هيه ؟ لكن البلدة هجرها اليوم أهلها .

ـ هل من جرائم قتل ياستونى ، أم مجرد حوادث شغب ؟

ـ الهدوء مستتب هنا . هل سمعت عن عملية السطو على البنك فى فلودهامبتون ؟

ـ لا . هل اخذوا كثيرا ؟
ـ ١٣ الف دولار كما قيل . اننى كنت خارج البلدة طول الليل، وقد خرج ويلى للمساعدة .
ـ هل تظن انهم سوف يقبضون عليهم ؟
ـ اعتقد . فان شركات التامين لا تكف عن الصراخ والمتابعة .
ـ صحيح . اسمع ياستونى . بودى ان تتابع موضوع دانى تيلور . انه يبدو فى حالة سيئة جدا .
فقال ستونى : المسالة مسالة وقت فقط . سوف افعل بالتاكيد . حكايته مغرة فعلا . فهو شاب طيب ، ومن اسرة كريمة.
ـ ان حاله يقتلنى . فاننى احبه .
ـ وما الحيلة معه؟ ارى مطرا قريبا يا ايثان، وانا اكره البلل.
ولاول مرة فيما اذكر دخلت الحارة منتعشا وفتحت الباب الخلفى بانفعال . وبعد برهة رايت جو مورفى يقترب من باب البنك الخلفى وبيده مفتاح الباب ، وكان بادى الاستياء ، ولما قلت له اننى كنت اظن البنك مغلقا هذا اليوم قال لى :
ـ مكتوب على الا اغلق انا شخصيا . هناك خطأ فى الحسابات قدره ستة وثلاثون دولارا ـ بالزيادة .
ـ هذا افضل بالطبع .
ـ لا . ولابد لى من معرفة مصدره .
ـ هل البنوك امينة الى هذا الحد ؟
ـ البنوك نعم . لكن الرجال هم الذين ليسوا كذلك . واذا كان لى ان احصل على العطلة فلابد لى من معرفة مصدر الخطأ . هل سمعت عن حادث السطو على بنك « فلود هامبتون » ؟
ـ اخبرنى ستونى . غريب اننا كنا نتحدث امس فقط عن حوادث السطو على البنوك . هل تتذكر ؟
ـ اعتقد انهم سيقبضون على اللصوص فى خلال اسبوع او اسبوعين .
ولما تركنى كنست المحل ورفعت الستائر وانا فى دوامة من المشاعر . وعلى مالوف عادتى كلما اهمنى شىء ، رحت اتحدث الى اصدقائى المتراصين فوق الأرفف :
ـ رفاقى الأعزاء . اذا كانت الحوادث بهذه البساطة فلماذا لا يكررها اكثر الناس ؟ لماذا يرتكب معظم الناس نفس الأخطاء مرارا وتكرارا ؟ هل لابد من شىء ينسونه دائما ؟ ربما تكون نقطة

الضعف الأساسية نوع من الطيبة . ان مارولو قال ان المال لاقلب له . الا يكون صحيحا اذن ان أية طيبة فى رجل المال هى نوع من الضعف ؟ كيف يسوقون الأفراد الطيبين العاديين الى ذبح النـاس فى الحروب ؟ قد يفهم هذا اذا كان العدو يبدو مختلفا او يتكلم لغة مختلفة . لكن ما الراى فى الحرب الأهليـــة الأمريكية ؟ ان « اليانكى » ابناء الولايات الشمالية اكلوا الأطفال ، و « الثائرين » اماتوا الأسرى جوعا . اذا كانت قوانين التفكير هى قوانين الاشياء ، فان الأخلاق هى مسألة نسبية ايضا ــ وكذلك الفضائل والرذائل. كلها نسبية فى كون نسبى .

« ان ما قلته لمارى العزيزة كمزاح هو الحق . ان اجـــدادى الأجلاء ملاك السفن وربابنيتها كانوا مفوضين فعلا بالاغارة على السفن التجارية اثناء الثورة الأمريكية وكذلك عام ١٨١٢ . عمل وطنى صميم ، ومطابق لنواميس الأخلاق . لكنهم فى نظر البريطانيين كانوا قراصنة ، وما أخذوه احتفظوا به . على هذه الصورة بدات ثروة الأسرة ، تلك الثروة التى ضيعها ابى . ومن هنا جاء المال الذى يجلب الغنى ويضاعف الثراء . وكان لنا أن نفاخر به ونتباهى .

« المال ليس فقط لا قلب له ، وايضا لا شرف ولا ذاكرة . المال محترم آليا اذا احتفظت به الى حين . لاتظنوا اننى ادين المـــال واندد به ، فانى معجب به الى حد بعيد . ان بعض الأســـماء العريقة بداوا ثراءهم ببيع اللحم البقرى للبريطانيين عندما كانت بلادنا تحارب البريطانيين ، واموالهم محل الاعجاب والتقدير مثل اى اموال اخرى ، وكذلك الأسرة العريقة . واسرة اخرى لعلهـا اعظم ارباب البنوك جميعا . ان مؤسس الأسرة اشـــترى ثلثمائة بندقية من الجيش . وكان الجيش قد رفضها لانها اسلحة فاسدة وهكذا اشتراها بثمن بخس، ربما بخمسين سنتا للبندقية الواحدة. ولم يمض الا قليل حتى بدا الجنرال فريمونت حملته البطولية فى اتجاه الغرب ، فاشترى البنادق بعشرين دولارا للواحـــدة . ولم يسمع احد قط ان كانت البنـــادق قد انفجرت فى ايدى الجنود حامليها . وهذا نوع من المال الذى يولد المال . ولا يهم كيف تحصل على هذا المال طالما انك تحصل عليه وتستخدمه لتحصل منه على المزيد . ان سيدى وسيدكم مارولو الذى ينتهى نسبه الى روما العريقة على حق كل الحق . حيثما يتعلق الأمر بالمال ، فان قواعد الأخلاق المرعية تأخذ اجازة .

« تسالونني لماذا اكلمكم وانتم معلبات ويقول ؟ ربما لانكم اهل حكمة وتكتم . انتم لاترددون ما تسمعونه ولا تثرثرون . المال لايكون موضوعا شائكا الا عندما يقتنيه صاحبه . ولكنه محبب للفقير يهفو اليه ويتوق . لكن الا توافقونني على انه اذا اصبح الانسان مهتما اهتماما فعالا بالمال ، فلابد له أن يعرف شيئا عن طبيعته وخصائصه ونزعاته ؟ ان قلة قليلة من الناس ، ومنهم كبار الفنانين ، يهتمون بالمال لذاته » .

وبينما كنت منهمكا فى تفريغ صناديق المعلبات اذ سمعت طرقا عاليا على الباب الأمامى . ولما نظرت الى ساعتى الفضية العتيقة الغيتني لأول مرة فى حياتى لم افتح المحل فى الموعد المحدد وهو تمام التاسعة . كانت الساعة التاسعة والربع . وكان انهماكى فى التحدث الى المعلبات قد انساني كل شيء . فاسرعت بفتح الباب ، واذا القادم مارجي « الصيادة الشابة » . ولم اكن فى الحقيقة قد نظرت اليها من قبل بامعان ولا تفحصتها . ولعل هذا هو سبب قراءتها للطالع ـ لكى تتاكد انني اشعر بوجودها .

فتحت الباب . فدخلت بقوامها الرجراج المهتز . ومارجي مخلوقة لو وصفها جو مورفى لقال انها « طبق شهى » . كانت منتظمة التقاطيع ، طويلة الأنف قليلا ، مليئة الشفتين ، مصبوغة الشعر بلون كستنائى يجاوز اللون الطبيعي ولكنه جذاب ، تتلون عيناها الزرقاوان تبعا لحالة الضوء فيخالطهما اللون البندقى او الفولاذى الثاقب .

وقفت برهة تقلب نظرها بينى وبين المعلبات ، وما لبثت ان قالت ضاحكة :

ـ انا محتاجة الى البن هذه المرة .

ـ هذا حال اكثر الناس .

ـ ما قصدك ؟

ـ ان اول عشرة « زبائن » كل يوم يطلبون البن ـ بالمناسبة ، اريد ان اشكرك لارسال مندوب المبيعات .

ـ كانت هذه فكرته ، فلا محل للشكر .

وقدمت اليها علبة البن . وعندما مدت يدها لكى تاخذها منى تحرك كل عضو فى جسدها وترجرج كانما يعلن عن وجوده . كان كل شيء فيها جديدا ، اراه لأول مرة ، حتى لم املك أن كتمت انفاسى . ان مارى تقول ان المراة يمكنها ارسال اشارات ،

اذا هى ارادت . واذا صح هذا فان مارجى كان لديها « شبكة اتصالات » تبدأ من اخمص قدميها الى قمة شعرها !

قلت لها :

ـ ان قراءة الطالع كانت عملية مدهشة .

ـ هل تضايقت ؟

ـ لا . ولكننى اود فقط أن اعرف كيف امكنك هذا .

ـ انت لا تؤمن بهذا العمل .

ـ ليست مسألة ايمان . فانك حددت اشياء كنت افكر فيها وكنت انوى عملها .

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل نيتى للتغيير .

ـ هل تظن اننى رتبت اوراق الطالع ؟

ـ ليس هذا هو المهم . ولو فعلت كذلك ، فما الذى جعلك تفعلين ؟ هل فكرت فى هذا ؟

راحت تتفرس فى عينى مستريبة ، مستخبرة ، متسائلة ، ثم قالت بصوت خافت :

ـ نعم . أعنى لا . اننى لم افكر فى هذا .

وفى هذه اللحظة اطل مستر بيكر برأسه من الباب ، قائلا :

ـ صباح الخير يامارجى . هل فكرت يا ايثان فى اقتراحى ؟..

ـ فكرت فعلا . وبودى أن اتكلم معك .

ـ فى اى وقت تحب يا ايثان .

ـ الحقيقة اننى مشغول طول الأسبوع . فان مارولو لا يحضر الى هنا الا نادرا . هل ستكون فى البيت غدا ؟

ـ مؤكد ، بعد موعد الكنيسة . هذه فكرة . احضر معك مارى حوالى الساعة الرابعة . وبينما تثرثر السيدات عن قبعات عيد الفصح ، نتسلل نحن و ...

ـ عندى مائة مسألة اريد أن اسألك عنها . الأفضل أن اكتبها فى ورقة .

ـ اى شىء اعرفه سيكون تحت طلبك . سأنتظرك اذن . نهارك سعيد يا مارجى .

وعلى اثر انصرافه قالت مارجى :

ـ أراك بدأت التغيير بسرعة .

ـ ربما كانت محاولة فقط قولى لى . ما رايك اذا قمت مرة

اخرى باستكشاف اوراق الطالع عشوائيا ، لمعرفة درجة قربها من نتيجة أمس .

فقالت :

ـ لا ! هذا لا ينفع . أم انت تسخر منى ؟ اننى اراك اليوم شخصا مختلفا . ما الذى سبب هذا يا ايثان ؟

ـ لا أعرف . ربما لاننى سئمت وجودى بائعا فى محل بقالة .

ـ لك حق ، وهذا هو الوقت المناسب . على كل حال سافكر فى اقتراحك عن استكشاف الطالع مرة ثانية .

ـ كلما اسرعت كان افضل ، قبل ان تفتر الطوالع .

وخرجت وهى تهتز مترجرجة ، ورحت انظر فى اثرها طويلا وكأنها شخص غريب اراه لأول مرة ، أو شخص معروف اراه بعين جديدة .

وقد حدثت مناسبتان هذا اليوم برهنتا لى ان هناك تغييرا عميقا وبطيئا بدا يتشكل فى نفسى .

كانت أولاهما قدوم مارولو الذى اشتدت عليه وطأة الروماتزم حتى ذهب يثنى ويبسط ذراعيه مثل رافع اثقال. وقد بادرنى قائلا:

ـ كيف حال العمل ؟

ـ قليل .

ـ البلدة شبه مهجورة فى عطلة العيد .

ـ قل لى يا الفيو . منذ متى جئت من جزيرة صقلية ؟

ـ منذ ٤٧ سنة . مدة طويلة .

ـ ألم تعد الى هناك مرة ؟

ـ لا .

ـ لماذا لا تذهب للزيارة ؟

ـ لأى سبب ؟ كل شىء تغير .

ـ ليس لك اقارب احياء ؟

ـ بالتأكيد . هناك اخى واولاده . وهؤلاء اصبح لهم اولاد .

ـ ربما يحلو لك ان تراهم .

فنظر الى كما نظرت الى مارجى قبله ، اذ عدتنى شخصا مختلفا ، وقال بارتياب :

ـ ما الذى يدور فى عقلك يافتى ؟ اراك اليوم شخصا مختلفا .

ـ الحقيقة عندى بعض الأخبار السارة .

ـ لعلك لا تنوى ترك العمل هنا ؟

ـ ليس حالا . ان اردت القيام برحلة الى ايطاليا فاعدك ان ابقى هنا .
ـ ما هى اخبـــارك السيـــارة ؟ ..
ـ لايمكننى ان اقولها الآن .
ـ مال فى الطريق ؟
ـ ممكن . اسمع انت غنى بما فيه الكفاية . لماذا لا تعـــود الى صقلية وتريهم كيف يكون الأمريكى الغنى ؟ أستحم هناك بالشمس ، بامكانى رعاية المحل . انت تعرف هذا .
ـ أراك تغيرت يافتى . ما السبب ؟
ـ قلت لك . اذهب ولاعب الأولاد .
ـ اننى لم أعد انتمى الى هناك .
لـكننى ايقنت اننى زرعت شيئا فى نفسه فعلا . وعرفت انه سيعود فى وقت متاخر هذه الليلة لجرد حســابات المحل . فهو مخلوق متشكك بطبعه .
ولم يكد ينصرف حتى جاء مندوب المبيعات بمحلات «ب.ب.د» كما فعل بالأمس . وقال لى :
ـ ليست هذه زيارة عمل . اننى سأذهب فى عطلة نهاية الأسبوع الى « مونتوك » . وخطر لى ان امر من هنا .
ـ يسرنى حضورك . أريد ان اعطيك هذا .
وابرزت له المحفظة الجلدية الثمينة تطل منهـــا ورقة العشرين دولارا ، قائلا :
ـ خذها .
ـ ما قصدك ؟ هل انت غاضب ؟
ـ لا بالتاكيد .
ـ اذن لمـــاذا ؟
ـ خذها !
ـ يا الهى ! هل قدمت محلات « وايلاندز » عرضا افضل ؟
ـ لا .
ودفعت بورقة البنكنوت الى جيب صدره تحت المنديل المنمق، وقلت له :
ـ ساحتفظ بالمحفظة . انها جميلة .
ـ اسمع . لايمكننى تقديم اى عرض قبل الرجوع الى الادارة . ساتصل بك تليفونيا يوم الثلاثاء .

ـ المكالمة وردها على حسابك .
ـ المهم ابقاء الخط مفتوحا .
ـ هل تنوى صـــــيد الأسماك ؟
ـ لو كان معى سيدات . حاولت أخذ مارجى المغربة الى هناك، لكنها كادت تحطم راسى . اننى لا افهم النساء .
ـ انهن اغرب من الغرابة .
ـ على كل حال لا تفعل شيئا قبل ان اتصل بك . يا الهى ! كنت اظن اننى اتعامل مع شخص ريفى ! ..
ـ اننى لن ابيع رب عملى بثمن زهيد .
ـ كلام فارغ . انك فقط رفعت الثمن .
ـ اننى فقط رفضت رشوة اذا اردت الصراحة .
وهذا برهان على اننى اصبحت شخصا مختلفا . فان صاحبنا بدا ينظر الى باحترام ، حتى احببت هـــذه النظرة . ان المغفل حسب اننى مثله ، بل ابرع منه فى المساومة !
وقبيل اغلاق المحل اتصلت بى مارى تليفونيا وقالت لى :
ـ ايثان ... لا تغضب ولا تفقد اعصابك .
ـ من اى شىء يا زهرتى العطرة ؟
ـ اننى دعوت مارجى للعشاء عندنا ، فالمسكينة وحيدة و ...
ـ وما المـانع ؟
ـ الست غاضبا ؟
ـ ابدا . وبالمناسبة ، اكوى اجمل فساتينك . سنذهب الى بيكر فى الرابعة .
ـ فى بيتهم ؟
ـ نعم . لنتناول الشاى .
ـ لابد ان ارتدى ملابس العيد لحفلة الـكنيسة .
ـ اجمل واجمل يا بنفسجتى .
ـ انت غير غاضب بخصوص مارجى ؟
ـ اننى احبك واعشقك !
وما كنت بهذا الا معبرا عن شعورى الصادق حيال مارى .

الفصل الخامس

انهمكت مارى فى اعداد وليمة العشـــاء لمناســـبة زيارة مارجى « الصـــيادة الشـــابة » . وبينما كنت ارتدى ملابسى استعدادا للوليمة جاءنى الان فى غرفة النوم ســـائلا عن علبة الحبوب التى يعلوها قناع الفار . فقلت له :

ـ الحقيقة اننى نسيت . لماذا لا تمر فى المحل وتاخذها ؟
ـ سأفعل .
ـ واين ايلين ؟
ـ انها تـكتب موضوعها للمسابقة : احب امريكا .
ـ وموضوعك انت ؟
ـ اننى افكر فيه . هل تمانع اذا سألتك سؤالا يا ابى ؟
ـ لى الشرف .
ـ هل صحيح ان جانبا كبيرا من شارع «هاى» كان مملوكا لكم ؟
ـ صحيح .
ـ وهل كانت لنا سفن لصيد الحيتان ؟
ـ نعم .
ـ ولمـــاذا ليست لنا الآن ؟
ـ فقدناها .
ـ وكيف ؟
ـ هـــذا ما حدث .
ـ هل عندك وقت لتصعد الى غرفة السطح معى ؟
ـ سأجد الوقت اذا كان الموضوع هاما .
ـ قلت لى انه توجد كتب ومراجع بها موضوعات مختلفة .
ـ اية موضـــوعات مثلا ؟
ـ موضوعات وطنيـــة ، لأجل المســـابقة .
ـ فهمت . ما رأيك فى هذا كنموذج : « هل الحياة غالية الى هذا الحد والسلام حلو بهذا القدر حتى يوجد من يشتريهما بثمن القيود والعبودية ؟ حاشا لله ! لست أعرف أى طريق يسلـــكه

غيرى ، !ما انا فاقول : اعطنى الحرية ، او اعطنى الموت ! » .
ـ رائع يا بابا !
ـ بالتأكيد . كانوا جبـابرة فى تلك الأيام .
ـ ليتنى عشت فيها . سـفن قرصنـة ! بوم بوم ! ارفعوا الرايات ! سبائك الذهب وسيدات يلبسن الحرير والمجوهرات ! ليتنى عشت تلك الأيام . ان أهلنا عاشوها ، كما قلت انت .
ـ كانت نوعا من القرصنة المشروعة . واظن انها لم تكن حياة جميلة كما تبدو من بعيد .
ـ لا تهمنى المتاعب . كنت آخذ الذهب وأعود به الى البيت . اظنهم لايسمحون بهذا الآن .
ـ لا . العالم الآن اكبر واكثر نظاما . والصـلاقات بين الأمم يسمونها الآن الدبلوماسية .
ـ هناك ولد فى مدرستنا كسب جائزتين فى التليفزيون ـ مائتان وخمسون دولارا . ما رايك يا بابا ؟
ـ لابد انه ذكى .
ـ هو ؟ لا طبعا . هو يقول انها حيلة يقوم بها . اذا عرفت وسيلة الحيلة امكنك أن تنجح . وعنده مجلة بها جميع المسابقات فى البلاد كلها . هل يمكن أن أحصل على احدى هذه المجلات يابابا ؟
ـ حسنا. اذاكانت القرصنة قد انتهت، فانالحافز مازال باقيا.
ـ ما قصـدك ؟
ـ مال بلا مجهود .
ـ هل يمكن أن أحصل على تلك المجلة ؟
ـ كنت اظن ان تلك الأعيب قد انتهت بعد الفضـائح التى نشرت عنها .
ـ واين الفضائح ؟ كل ما هناك انهم يحتالون لاجراء تغييرات فى النصوص . بودى أن انال نصيبى من تلك الغنائم .
ـ هى غنائم اذن ؟
ـ هى نقود ، بصرف النظر عن كيفية الحصول عليها ؟
ـ لا أوافق على هذا . ان الضرر لا يقع على النقود بقدر مايقع الشخص المتحايل .
ـ لا ادرى كيف . ليس هذا ضد القانون . الغريب أن بعض الشخصيات الـكبيرة فى بلادنا .
ـ ولدى ! .. ولدى ! ..

ـ ماذا تقصد يا ابى ؟ ..
ـ هل لابد أن تكون غنيا يا آلان ؟ ..
ـ وهل تظن اننى أحب أن أعيش دون أن تكون لى دراجة بخارية ؟ وكيف الحال اذا كانت عائلتك ليست لها سيارة ، بصرف النظر عن التليفزيون ؟
ـ كلامك صدمة كبيرة لى .
ـ انت لا تعرف الحقيقة يا ابى . مرة كتبت فى الفصل موضوعا عن كيف كان جدى الأكبر ربانا لسفينة صيد الحيتان .
ـ انه كان كذلك .
ـ الفصل كله انفجر بالضحك . وقد سمونى « الحيتانى » ! ما رأيك فى هـذا ؟ ..
ـ شىء مؤلم .
ـ لن يكون مؤلما لو كنت محاميا أو صرافا فى البنك أو شيئا مثل هذا . هل تعرف ما الذى سأفعله بأول « غنيمة » أفوز بها فى مسابقة من هـذا النوع ؟ ..
ـ ماذا ؟
ـ سوف اشترى سيارة حتى لا تشعر بالاحراج وانت ترى معظم النـاس عنـدهم سيـارات .
ـ شكرا لك يا آلان .
قلت هذا وقد شعرت بجفاف فى حلقى . ثم اضفت :
ـ عندما نصعد الى غرفة السطح بعد قليل سأبحث لك عن مجلد ضخم به جميع الخطب العظيمة التى ألقاها زعماء أمتنا . وأرجو أن تقرأها يا آلان .
ـ سأفعل . أنا محتاج اليها .
وتركته وأنا أبلل شفتى. كان آلان على حق . كان حرجى شديدا. وبعد أن جلست فى مقعدى الـكبير تحت مصباح القراءة جاءتنى مارى بالجريدة . فقلت لها :
ـ كم أنت سباقة الى كل ما هو مريح . عندى سر أقدمه لك هدية . ان مارجى زارتنى اليوم بدعوى حاجتهـا الى البن . وعندما تكلمنا عن قراءة الطالع اقترحت عليهـا أن تكرر المحاولة وتنظر ان كانت النتيجة واحدة .
ـ لاشك انك لم تفعل هـذا ! ..
ـ بل فعلت . وقالت ان هذا يكون شيئا طريفا .

ـ وهل تظن انها ستفعل ذلك هـــذه الليلة ؟
ـ اظن ان هذا هو سبب حضورها .
ـ آه . لها . اننى دعوتها للعشاء .
ـ بعد أن مهدت لذلك من جانبها .
ـ الحقيقة انت لا تحبها .
ـ بالعكس . اننى بدأت احبها واحترمها .
ـ ليتنى اعرف متى تهزل ومتى تجد ! ..
وفى هذه اللحظة جاءت ايلين بهدوء حتى لا تستطيع ان تعرف ان كانت تسترق السمع ام لا ، ولكننى اشـــك انها كانت . ان ايلين فى عامها الثالث عشر حلوة مرحة رقيقة مع ميل الى الكآبة ، وطبع شكس اذا لزم الأمر .
قلت لها وقد جلست على مسند المقعد ملاصقة لى :
ـ سمعت انك مشتغلة بموضوعك .
ـ الواشى اخبرك بهذا .
ـ هل هو جميـــل ؟
ـ جدا . وسأدعك تقراه بعد أن أتمه .
ـ لى الشرف . اراك لبست استعدادا لوليمة الليلة .
ـ هـــذا الفستان القديم ؟ اننى ادخر فستانى الجديد لحفلة الـــكنيسة غدا .
ـ فـكرة جميلة . سوف يكون هناك فتيان .
ـ اننى اكره الفتيـــان .
ـ اعرف هذا . العداوة هى شـعارك . انا شخصيا لا احبهم كثيرا . الآن اريد ان اقرأ الجريدة .
فمالت عنى ، ولـكنها قالت تنتقم منى فى الحال :
ـ متى سوف تصبح غنيا ؟ ..
نعم . انها سوف تنغص يوما على رجل المستقبل حيـاته بمثل هذا الأسلوب ، وقد هممت أن اضربها « العلقـــة » التى كنت أهدد بها ، خصوصا بعد أن رأيت نظرة التشفى فى عينيها ، لكننى امسكت وقلت :
ـ فى الأسبوع القـــادم .
ـ حسنا . الأفضل أن تسرع . اننى سئمت الفقر .
وأسرعت بالابتعاد . اننى اهيم بها رغم كل عيوبها .
كان مكتوبا على الا اقرأ الجريدة . فقد وصلت مارجى .

فى الصباح كانت مارجى « الصيادة » التى جاءتنى وفى نيتها وملامحها وزينتها الصيد والقنص. اما الآن فكانت الضيفة المحتشمة، الرقيقة ، المتواضعة ، الرزينة . وكان مسلكها نحوى كأننى زدت اربعين سنة منذ الصباح . يا للمرأة من مخلوق غريب . اننى معجب بما تفعله المرأة ، وان كنت لا افهم له سرا .

وكانت وليمة العشاء سلسلة من عبارات الاعجاب بجودة الطعام ومذاقه . وبعد شرب القهوة ارادت مارى أن تتخلص من وجود « الأولاد » ، فقالت انهما سيتكفلان بغسل الأطباق ، ولكننى انقذت الموقف قائلا :

ــ لكننا نعطلهما عن موعد السينما اذا لم نمكنهما من الخروج الآن

لم تكن هناك نية للذهابهما الى السينما ، ولكن مارى فهمت ، وتطلعت الى بنظرة اعجاب لم تخل من انزعاج خفى .

وبدأ ثلاثتنا يحومون بحذر حول الموضوع الذى كنا نعلم انه آت لاريب فيه . فقالت مارى مستهلة :

ــ اننى لا اكاد افهم ايثان . كان طول عمره يكره قراءة الطالع، ويتندر عنه . فما الذى غير احواله ؟

فقلت وأنا مسترخ فى مقعدى الوثير :

ــ المسألة هى ان ملايين الناس يسعون الى معرفة الطوالع ويدفعون من جيوبهم . وهذا ما يجعل مثلى يهتم بالموضوع كغيره من عباد الله . ثم أننى أود ان اعرف شيئا عن أوراق اللعب التى تكشف الطالع . أننى جاهل ، وكثيرا ما سمعت ان « الغجر » يمارسون هذه العملية . هل انت « غجرية » ؟

فقالت مارى عنها :

ــ ان اسمها الأول كان روسيا ، ولكنها جاءت من الأسكا .

فقالت مارجى موضحة :

ــ عندى سر مؤثم لم اخبرك به يا مارى، وهو كيف كنا فى الاسكا.

فقلت :

ــ ان الروس كانوا يملكون على الاسكا . وقد اشتريناها منهم.

ــ نعم . لكن هل عرفتم انها كانت سجنا ، مثل سيبيريا ، ولكن لأسوأ انواع الجرائم ؟

ــ أية جرائم ؟

ــ ان جدتى الكبرى حكم عليها بالنفى والسجن فى الاسكا بتهمة السحر .

ـ وماذا كانت تفعل ؟
ـ كانت تثير العواصف .
فقلت ضاحكا :
ـ فهمت الآن كيف ينطبق عليك هذا الوصف .
ـ تثير العواصف ؟
ـ يعنى تقرأ الطوالع . ربما كان نفس الشيء .
فقالت مارى : أنت تمزحين .
ـ ربما . لكن هذا حقيقى . كانت هذه جريمة أسوأ من القتل ان أوراقها لا تزال عندى ، وان كانت باللغة الروسية .
ـ أيمكنك ان تقرئى الروسية ؟
ـ قليلا الآن .
فقلت : ربما كان السحر هو أسوأ جريمة .
فقالت مارى : هل سمعت . انه يقفز هنا وهناك ، ولا يعرف أحد اتجاه تفكيره ! على كل حال أود أن تقرأ مارجى الطالع ، ولكن بطريقتها الخاصة دون ان تتدخل انت يا ايثان . اذا جعلنا نتكلم فسوف يعود « الأولاد » ولا نتمكن من شيء .
وجئت بمنضدة تنبسط وتنطوى كطلب مارى ، وجلست مارجى فى مقعد مستقيم الظهر كطلبها هى ، وقالت :
ـ ركزوا .
ـ على أى شيء ؟
ـ على لاشيء بقدر ما يمكن .
وأخرجت من كيسها مجموعة نظيفة مصقولة من أوراق اللعب ، وان كانت أطول وأضيق من الأوراق المعتادة ، ويزيد عددها عن ٥٢ ورقة.
وبدأت مارجى تقلب الأوراق. وكانت أسماؤها مكتوبة بالفرنسية : الأمبراطور ـ الناسك ـ المركبة ـ العدالة ـ الشيطان ـ الأرض ـ الشمس ـ القمر ـ النجوم ، الى جانب مجموعات من السيوف ، والكئوس ، والصولجانات ، والنقود . وكانت كل مجموعة مع « ملكها » ، و « ملكتها » ، و « فارسها » . ثم رأيت أوراقا غريبة ـ مغلقة ـ برج يشقه برق ، وعجلة للحظ ، ورجل معلق من رجليه فى مشنقة سمى باسم « الهالك » ، والموت ـ مرموزا اليه بهيكل عظمى ومنجل .
لم أتمالك أن قلت :
ـ مناظر كئيبة . هل تعنى الصور ومدلولاتها ؟

ـ المسألة متعلقة بحركتها بالنسبة لبعضها البعض . اذا سقطت مقلوبة فانها تعكس المعنى .
ـ وهل هناك اختلاف فى المعنى ؟
ـ نعم . وهو الاستخلاص والتفسير .
ـ أين تعلمت هذا ؟
ـ اعتدت أن أراقب جدتي . وفيما بعد اعتـــدت أن أمارس العملية كنوع من « الحيل » فى الحفلات ـ لجلب الانظار فيما اظن.
ـ وهل تؤمنين بهذا العمل ؟
ـ لا أعرف . أحيانا تظهر نتائج عجيبة .
وبدت يداها كشىء حي وهى تخلط الورق وتقسمه ثم تخلطـــه وتقسمه ثم تقدمه الى لـكى أسحب . فقلت لها :
ـ وماذا افعل ؟
فهتفت مارى :
ـ اقرأ يا ايشان ! انظر ان كان يطابق ما ظهر امس !
فنظرت الى مارجى قائلة :
ـ أشقر الشعر . أزرق العينين . هل انت تحت الأربعين ؟..
ـ يكاد .
ـ ملك الصولجان . هذا انت .
واخرجت من مجموعة الورق ملـكا متوجا وموشحا ممسكا بيده صولجانا كبيرا احمر وازرق ، فوضعته مكشوفا واعادت خلـــط الورق . ثم اخذت تقلب الأوراق بسرعة وهى تتكلم بصوت فنائى. ووضعت ورقة فوق ورقتى قائلة : « هذه تغطيك » . ووضعت ورقة اخرى بالعرض قائلة : « وهذه تفسد اعاديك » . ثم ثالثة فوقها : « وهذه تتوجك » . ثم رابعة تحتها : « وهـذه تسندك وتقويك » . بهذا شكلت صليبا من الورق فوق المنضدة . وبسرعة سحبت أربع ورقات صفتها الى يسار الصليب قائلة : « انت بذاتك ، وبيتك ، وآمالك ، ومستقبلك » . وكانت الورقة الأخيرة هى الرجل المشنوق المسمى بالهالك ، ولـكنه بدا من مجلسى حول المنضدة معتدل الوضع . فقلت :
ـ كل هذا مستقبلى ؟
فقالت وهى ترسم خطا تحت شفتها السفلى :
ـ قد يكون المعنى الخلاص والنجاة .
وقالت مارى :

ـ هل المـال موجود فى الطالع ؟
فأجابت مارجى شاردة الفكر :
ـ نعم . موجود .
وفجأة جمعت الأوراق وخلطتها مرارا ثم كشفتها وهى تغمغم كلماتها الطقوسية بصوت خافت . وبدا انها لا تتفحص ورقة بعينها ولـكن المجموعة كلها فى آن واحد ، وكانت نظراتها بعيدة غائمة .
يالله من تحايل بارع ! فارسة فى مجتمعات النسـاء ! اذا استطعت أن تسيطر على الحاضرين وتشد أعصابهم بحيث يكتمون انفاسهم ويرتقبون متشـــوقين أمدا طويلا ، فسوف يصدقون اى شيء . ليست المسألة تصنعا ، بقدر ما هى فن وتوقيت . لاشك ان هذه المرأة تضيع موهبتها مع من تصطادهم من منذوبى المبيعات . لـكن ما الذى تريده منا أو منى ؟
فجأة جمعت أوراقها وأعادتها الى علبتها الحمراء قائلة :
ـ لايمكننى اتمام القراءة . هذا يحدث أحيانا .
فقالت مارى لاهثة :
ـ هل رأيت شيئا لا تريدين أن تقوليه ؟
ـ آه . اننى اقول كل شيء بصراحة . مرة عندما كنت فتـاة صغيرة رأيت حية تغير جلدها ، الحية ذات الجرس التى توجد فى جبل روكى . لقد راقبت العملية كلها . وحدث الآن وأنا انظر الى الأوراق انها اختفت من أمام نظرى ، ورأيت تلك الحية تغيرجلدها ، فكان جزء منه ترابيا مسننا وجزء جديدا غضا . لكمان تحلوا المعنى.
فقالت مارى بحماس :
ـ ربما كان هذا رمزا لتغيير فى حظ ايثان سيحدث قريبا .
ـ أهو حية ذات جرس ؟
ـ آه . فهمت قصدك
فقالت مارجى :
ـ اكاد اشعر بقشعريرة . حدث اننى مرة شعرت بميل الى الحيات ، ثم لمـا كبرت أصبحت اكرهها . يحسن ان اذهب الآن .
ـ يمكن أن يصحبك ايثان الى البيت .
ـ هذا بعيد عن تفكيرى .
ـ شيء كهذا يسرنى
فنظرت مارجى الى مارى وقالت باسمة :
ـ احرصى على وجوده دائما بقربك . لايمكنك ان تتصورى ماهو

شعور المرأة بغير رجل .
فقالت مارى :
ـ كلام فارغ . بامكانك أن تنالى زوجا باشارة من اصبعك .
ـ هذا ما فعلته من قبل . لكن بلا فائده . ان من يأتون بمثل هذه السهولة لا يستأهلون الاستحواذ عليهم . حافظى عليه . فقد تختطفه منك احداهن . وليمة جميلة . ارجو أن تتكرر .
آسفة يا ايثان بخصوص الطالع .
ـ هل ستراك فى الكنيسة غدا ؟
ـ لا . سوف أسافر الى ضاحية مونتوك الليلة .
ـ لكن الطقس هناك بارد رطب .
ـ اننى أحب الصباح على شاطىء البحر هناك .
وخرجت حتى قبل أن أفتح لها الباب ـ خرجت وكان شيئا يطاردها .
وقالت مارى على الأثر :
ـ ايثان . ماذا تستخلص من قراءة الطالع الليلة ؟
ـ انها لم تقرأ شيئا .
ـ انت تنسى . قالت انه قد يكون فيه مال . لكن ما رأيك ؟ اظن انها رأت شيئا لا تريد أن تخبرنا به ـ شيئا أثار خوفها .
ـ ربما رأت الحية مرة فبقيت فى عقلها .
ـ لعلك لا تظن ان لهذا ـ معنى ؟
ـ انت ياحبيبتى خبيرة بالطوالع . كيف لى أن أعرف ؟
ـ لابأس . يسرنى على أى حال انك لا تكرهها . كنت اظن ان هذا هو شعورك .
ـ انا مخادع . اننى اخفى افكارى .
ـ ليس عنى . انها تتكشف فى الوقت المناسب . آه . نسينا « الأولاد » . لنستعد الآن لعودتهم .

الفصل السادس

كان من عادتى أن أرجىء اتخاذ قرار فى موضوع ما الى حين أتدبره وأقلبه على مختلف وجوهه . فاذا انبريت له بعد ذلك أراه وقد اضحى حله واضحا والراى فيه محددا . ولابد أن هذا هو ما يحدث لكل انسان ، وان لم يكن لى من سبيل للقطع بهذا. والتعليل يبدو وكأنما قد انعقدت فى شعاب العقل ودروبه المظلمة محكمة خاصة واصدرت فى المشكلة قرارها بعد مداولات خفية .

وما من شك فى ان هذه المداولات الخفية فى شعاب العقل ودروبه المظلمة تتجلى آثارها المحتومة فيما يعتور الانسان من تغيير مستمر يعمل فى الأعماق ولا يطفو الى السطح الا بعد حين .

والواقع اننى كنت أشعر فى العهد الأخير بكثير من الأشياء الصغيرة . وقد بدأت تتخذ أشكالا أكبر ، وكان الأحداث والتجارب فى حياتى كانت تتصارع لكى تدفعنى فى اتجاه مضاد لوجهتى الطبيعية أو التى كنت أظنها طبيعية ــ وجهة بائع محل البقالة ، الخائب ، الانسان الذى لا أمل أمامه ولا هدف ، الذى شدت أمامه المسالك بما يحمل من أعباء اطعام بطون وكسوة أجساد أسرته ، المقيد بأنماط وعادات ومذاهب كنت أعدها فاضلة قويمة . بل يسوغ لى أن أقول اننى كنت مطمئنا الى اندراجى تحت وصف ما يسمونه « الرجل الصالح » .

ومن المؤكد اننى لم أكن غافلا عما يدور من حولى فى أرجاء بيئتى المحدودة . كان القاضى دوركاس يتصرف فى بعض القضايا الصغيرة مثل قضايا مخالفات المرور تصرفات فيها مجال لتبادل الخدمات والمنافع . وكان العمدة ، الذى هو ايضا صاحب مؤسسة بود لمواد البناء ، يبيع المواد للبلدية بأثمان مرتفعة ، وبعضها مما لايحتاجون اليه . وعندما كان يتقرر شق شارع جديد ورصفه ، كان يحدث دائما أن يكون مستر بيكر ومارولو وزمرة أخرى من كبار رجال الأعمال سباقين الى شراء قطع الأراضى على جوانب الشارع حتى قبل اعلان المشروع . كانت هذه الأشياء هى الظواهر الطبيعية المألوفة،

ولـكننى كنت أعتقد دائما انها ليست موائمة لطبيعتى . وقد رأيت مارواللو وبيكر ومندوب المبيعات ومارجى وجو مورفى يكرهوننى برفق بل يكادون يستحثوننى ، الى حد ان ايماءاتهم وتلميحاتهم بدأ يكون لها مكان من تفكيرى وعنايتى .

وقد كان يجب أن أنام هذه الليلة نوما عميـقا بعد يقظة الليلة الفائتة أسوة بحبيبتى مارى التى استغرقت فى اهنأ نوم ، لـكن هذا لم يحدث . فان « النقط الحمراء » ظلت تسبح أمام عينى بلا انقطاع . وصحيح اننى رحبت بها لـكى افـكر فى موضوعات شتى مثل موضوع « مسابقة أحب أمريكا » التى سيشترك فيهـا ولداى ، ولـكن الجانب الأوفر من تفكيرى كان ينصب على التأمل فيما هو حادث لى من هذا التغيير وفيما ينبغى أن أفعل حياله ، ثم الفيت فجأة ان مؤتمر المداولات الخفية فى شعاب العقل ودروبه المظلمة قد فصل فى الأمر بقراره واوضح الطريق امامى بما لا لبس فيه ولا غموض . والظاهر اننى كنت آخر من يعلم . فطوال اليوم كان الناس يلاحظون اننى أبدو أحسن حالا ، وكان قصدهم اننى أبدو مختلفا ، متغيرا عن سابق حالى ، واكثر ثقة بنفسى. ودليل ذلك ان مندوب المبيعات قد فوجىء بما لمسه من تغيير فى مسلكى. ومارواللو ذهب يتفحصنى مستريبا متشـككا . وجو مورفى كان يبدى تعليقات عميقة المضمون . ثم جاءت مارجى « الصيـادة الشابة » التى لعلها كانت أنفذهم ذكاء بقصتها عن الحية . لاشك انها استطاعت بطريقة ما أن تكتشف حقيقة واقعة عنى قبلما تهيأ لى اكتشافها . وكان الرمز هو قصة الحية ذات الجرس .

ثم ان هيكل التغيير الجادة فى نفسى كان يستهدف لضغوط من خارجى : تمثلت فى رغبات آلان ومشتهياته ، وغمـزات ايلين وتلميحاتها ، وما وعد به مستر بيكر من مساعدات .

وحين كنت أمارى فى هذا التغيير كان يعرض لى أحيانا هـذا السؤال : افرض ان كونك بائعا متواضعا على الدوام وبلا أمل فى التغيير لم يكن فضيلة ولا استقامة ولـكن لونا من الخمول والتراخى وفتور الهمة ! ان النجاح فى اى شىء يتطلب جرأة واقداما . وربما كنت مترددا هيابا ، خائفا من النتائج . ان الأعمال الناجحة فى بلدتنا ليست معقدة ولا مبهمة ، ولو جرى استقصاء وتحقيـق للجرائم المتعلقة بالأعمال الحكومية والنشاطات الفردية فى البـلدة لوجد ان مئات القوانين والقواعد الأخلاقية قد انتهكت ، وان عدت

من قبيل الانتهاكات اليسيرة والمخالفات الهينة. واعرف رجل الأعمال الناجح عندنا اذا نال ما يريد ، عمد الى تطييب نوازع الفضيلة عنده بأسهل مما يغير قميصه . وكانى بهم يقولون : اذا كانت الجرائم الصغيرة تغتفر ويتجاوز عنها ، فلم لا يكون المثل مع كبرياتها ؟ ان مستر بيكر مثلا لم يقتل ابى ، لكنه عمل من طرف خفى على احراق السفينة « بيل آدير » وغرقها للفوز بالتأمين . اليس هذا من كبريات الجرائم؟ وهل تجد بين الثروات الكبرى التى نعجب بها ثروة لم تتحقق بالفتك والتجرد من نوازع الخلق ؟ لا اجد بينها ما لاينطبق عليه هذا الوصف .

ولو اننى وضعت قواعد الأخلاق جانبا الى حين ، فمما لاشك فيه اننى سأكون عرضة لجراح كثيرة . لكن هل ستكون جراحا اسوأ وانكى من جراحى الحالية ــ جراح الفشل والاحباط ؟ اذا كان للانسان ان يبقى على قيد الحياة ، فلا مفر من هذه الجراح .

لكن اذا أنا فتحت على نفسى هذا الباب ، فهل تكون لى القدرة على اغلاقه مرة اخرى ؟ لا ادرى . ما يكون لى أن أعرف حتى افتحه ... وهل كان مستر بيكر يعرف ؟ وهل فكر مستر بيكر فى شىء من هذا ؟ كان ابى يعلم ان أسرة بيكر أحرقت سفينة « بيل آدير » للحصول على التأمين . فهل كان هذا هو السبب الذى من اجله يسعى مستر بيكر لمساعدتى ؟ هل كانت هذه هى « الجراح » التى علقت به فى المعترك المتصارع ؟

كان من عادتى اذا أبهمت على المسالك ان ألجأ الى جدى الأكبر أستشيره فى خيالى وأستمد منه الحكمة وفصل الخطاب . وفى هذا الموقف رايتنى أسأله فى خيالى :

ــ هل أمضى بسفينتى فى هذا الطريق ؟ هو طريق آمن ؟ وهل يوصلنى الى بر السلامة أيها الربان المجرب ؟

ولكن لأول مرة الفيته يضن على بالرأى الهادى ، اذ قال :

ــ لابد لك أن تختار الطريق بنفسك . ان ما ينفع انسانا قد يضر غيره ، ولن تعرف النافع من الضار الا فيما بعد .

هكذا ضن على العجوز الداهية بنصحه . لكن ربما لم يكن هذا ليغير من الأمر شيئا . فلا أحد يريد النصح وانما يريد التأييد والتأكيد .

الفصل السابع

كان افطار أحد الفصح رائعا بما اشتمل عليه من البيض الملون والفطائر واللحم المقدد . ولم يكد النهار يتقدم حتى فوجئنا بزيارة مارولو لنا فى البيت لأول مرة ، ولما دعوته الى الجلوس قال لى :

ـ لا . عنـدى لك كلمة واحدة . لقد سمعت عن تلك الهدية التى قدمها لك ذلك المندوب المتجول ، وسمعت كيف طردته .

ـ من اخبرك ؟

فأجاب باسما : لايمكن ان اقول .

ـ لابأس. وماذا عنها ؟ هل تريد ان تقول انه كان يجب ان اقبلها؟

فتقدم منى وصافحنى بقوة قائلا :

ـ أنت شخص أمين .

ـ ربما لم يقدم لى ما فيه الـكفاية ؟

ـ هل تمزح ؟ أنت شخص امين .

ومد يده الى جيبه المنتفخ واخرج منه كيسا قائلا وهو يربت على كتفى :

ـ خذ هذا .

وانتابه الارتباك والحرج ، فاستدار وولى هاربا .

نظرت الى الـكيس ، فكان به بيض الفصح المحلى الملون ، وهو متوافر عندنا فى محل البقالة . ولما قلت لمارى ان مارولو جاء بهدية للأولاد قالت بدهشة :

ـ مارولو ؟ يقدم هدية ؟ لايمكن ان أصدق !

ـ هذا ماحدث .

ـ لمـاذا ؟ انه لم يفعل ابدا شيئا كهذا !

ـ اظن انه يحبنى .

ـ هل هناك شىء لا اعرفه ؟

ـ يازهرتى الجميلة . ان الحياة فيها مئات ملايين الأشياء التى لا تعرفها .

كان موعدنا اليوم لزيارة اسرة بيكر .

ولايمكن أن يعرف الانســـان أناسا مثل اسرة بيكر ما لم يكن يعرفهم منذ نشأته . ان التعارف السطحى ، بل الصداقة ، كلاهما شيء مختلف عن هذا . وكنت أعرفهم لأن اسرة هاولى واسرة بيكر كانتا متماثلتين فى الحسب والنسب ، والمنشأ ، وتجارب الحياة ، والثروة . ومن شأن هذا أن يجعل الأسرتين فى شبه نطاق خاص بهما بعيدا عن الدخلاء . وبعد أن فقد ابى ثروته ، لم تقفل اسرة بيكر الباب فى وجهى ، وبقيت مقبولا لديهم بحكم الصلات الوثيقة التي جمعت فى الماضى بين الأسرتين . ولـكننى معدود من الفقراء . والأعيان بلا مال لايبقون معدودين من الأعيان . ان ابنى الآن ، بلا مال ، لن يعرف آل بيكر ، وابنه سوف يكون دخيلا عليهم ، مهما يكن من اسمه وحسب أسرته . لقد أصـــبحنا مزارعين بلا أرض ، قادة بلا جنود ، فرسانا على الأقدام . ومن غير الممكن أن نبقى محتفظين بوجودنا . وربما كان هذا هو احد اسباب «التغيير» الذى كان حادثا لى فى هذه الآونة . اننى لا أريد المال ، ولا أرده فى اى وقت سابق ، من أجل المال . لـكن المال ضرورى للحفاظ على وضعى فى النطاق الذى اعتدته والذى يكفل لى الأمن والاستقرار. ولابد ان كل هذا قد تفاعل فى الشعاب والدروب المظلمة من عقلى، ثم طفا على السطح لا كتفكير ، بل اقتناع .

لقد استقبلتنا مسز بيكر بحفاوة قائلة :

ـ مساء الخير . اننا سعداء برؤياكم . الحقيقة انك اهملتنا مدة يا مارى . ألم يكن هذا اليوم رائعا ، خصوصا حفلة القداس ؟

وقال مستر بيكر :

ـ أننا لانراكم كثيرا . اننى اتذكر جدك الـكابتن هاولى عندما جلس فى نفس هذا المقعد وراح يتحدث عن الأسبان القذرين الذين اغرقوا الأسطول الرئيسى . لقد بلغ من شـــدة انفعاله انه اراق الشاى الذى كان يشربه ، وان لم يكن شايا صرفا ، اذ كان جدك معتادا أن يشرب « الدوم » تحت طبقة من الشاى ! انه كان رجلا قوى الشكيمة ، وان عده بعض الناس شديد الخصومة .

هكذا سنحت لى الفرصة للتحدث عن اسرتنا ، فقلت ونحن جلوس حول مائدة الشاى :

ـ مستر بيكر . لسنا فى حاجة الى استعراض الماضى كله وانت خير من يعرفه . انت تعرف الظروف التى جعلت والدى يفقد ثروة

الأسرة . كنت انا وقتهـــــا احارب مع الجيش فى الخارج . فـكيف حدث هذا ؟ ..

ـ لم يكن يقصد الى ماحدث ، ولـكن تقديراته ...

ـ انا أعرف انه لم يكن موفور الخبرة بأحوال الدنيا . لـكن كيف حدث ما حدث ؟

ـ الحقيقة ان ذلك كان فى فترة استثمارات اتسمت بالمجازفة. وقد جازف فى استثماراته .

ـ ألم يجد من يقدم له النصح ؟

ـ انه وضع أمواله فى العتاد الحربى الذى كان وقتها قد وصل الى درجة التشبع. وعندما الغيت الارتباطات المبرمة ، فقد أمواله.

ـ انك وقتها كنت فى واشنطن . فهل كنت تعلم بأمر الارتباطات التى تقرر الغاؤها ؟

ـ بطريقة عامة فقط .

ـ ولـكن بالدرجة الـكافية التى جعلتك انت لا تستثمر .

ـ لا . لم يحدث هذا .

ـ هل قدمت النصح لأبى بصدد الاستثمارات ؟

ـ كنت فى واشنطن .

ـ لـكنك كنت تعرف انه اقترض الأموال التى استثمرها ، برهن ممتلـكات أسرة هاولى ؟

ـ نعم ، عرفت هـذا .

ـ وهل نصحته بعدم المجازفة ؟

ـ كنت فى واشنطن .

ـ ولـكن بنكك حبس الرهينة .

ـ أنت تعرف يا ايشان ان البنك غير مخير .

ـ نعم أعرف . ومع ذلك فقد كان من المخجل انك لم تستطع تقديم النصح اليه .

ـ لا يجب أن تلومه يا ايشان .

ـ انا لا الوم بعد ان فهمت الموقف الآن . لـكننى لم اكن أعرف حقيقة ما حدث على وجه التحديد .

اعتقد ان هذا « الهجوم » المفاجىء من ناحيتى قد افقد مستر بيكر عنصر المبالاة . وراح يفكر فى مبادأة جديدة يفتتح بها الحديث، فسعل . وتمخط ، ومسح عينيه ، وصقل نظارته .

وعندما استعد للحديث قلت له :

ـ انا اعرف انه لا حق لى فى ان اطلب منك المساعدة . ولكنك انت نفسك اشرت اكثر من مرة الى موضوع الاتصال الطويل بين العائلتين . واقول بصراحة يامستر بيكر انه لم يكن فى نيتى انانبش الجروح القديمة. اننى اريد فقط ان اعيد تأهيل نفسى للمستقبل.

ـ هذه هى الروح المطلوبة يا ايثان . جاء وقت حسبت فيه انك فقدت الروح الأصيلة لأسرة هاولى .

ـ كان ذلك فعلا . او ربما لم اعمل على تنمية هـذه الروح . والآن وقد عرضت أن تمد يد المساعدة ، فمن أين يمكن أن ابدأ ؟

ـ المشكلة هى انك فى حاجة الى راس مال ، لـكى تبدأ ..

ـ أعرف هذا . لـكن توفر راس المال ، فمن اين ابدأ ؟

فقال بيكر :

ـ لابد ان هـذا الـكلام سيبدو مملا للسيدات . وربما كان الأفضل أن ننتقل الى حجرة المكتبة .

فنهضت مسز بيكر قائلة :

ـ كنت على وشك أن اسأل مارى أن تساعدنى فى اختيـار ورق للحائط فى غرفة النوم الـكبيرة . « العينات » موجودة فوق يا مارى .

وبعد انسحاب السيدتين قال مستر بيكر :

ـ قلت ان مشكلتك هى راس المال يا ايثان . ان بيتك خلو من الرهون . بامكانك أن ترهنه بقرض .

ـ لايمكن أن افعل هذا .

ـ بامكانى أن احترم رايك . لكن هذا هو المورد الوحيد المتاح. ثم هناك مال مارى الذىحدثتنى عنه ، هو ليس بالكثير ، لكن ببعض المال يمكنك أن تستزيد من المال .

ـ لا اريد ان امس مالها . انه ضمانها للمستقبل .

ـ انه حساب مشترك فى البنك ، ولا يربح شيئا .

ـ لنقل اننى تغلبت على معارضتى . فما الذى عندك من مصادر الاستثمار ؟

فمسح زجاج نظارته بعناية بالغة ، وقال :

ـ ان ما سأقوله لابد ان يبقى محل الـكتمان .

ـ بالطبـع .

ـ من حسن الحظ انا اعرف انك لا تكثر من الـكلام . لم يكن فى اسرة هاولى من هو كذلك ، باستثناء والدك . والآن ، اننى

اعرف كرجل اعمال ان بلدة « نيو بايتاون » سوف تنمو ، وكل شيء يساعد على نموها . وازدهارها : من ميناء ، وشواطىء ، ومسالك مائية داخلية . وما هو الا ان تبدأ فى النمو ، فلن يعوقها شيء . ويتعين على رجل الأعمال أن يساعدها فى عملية التنمية .

ـ ويجنى نصيبا من الأرباح .

ـ طبيعى .

ـ ولماذا لم تحدث هذه التنمية فى الماضى ؟

ـ اظن انك تعرف السبب : وهم رجال مجلس البلدة المتخلفون. انهم يعوقون كل تقدم .

كان يستهوينى دائما أن ارى كيف ان حوافز الربح تلبس مسوح الغيرة على الصالح العام . وبتجريد مستر بيكر من ظواهر الغيرة على الصالح العام هذه ، يبدو كما هو فى حقيقته ، فهو وقلة مختارة معه ، يظلون يساندون الادارة المالية للبلدة الى أن يتمكنوا من شراء أو السيطرة على كافة المرافق المقبلة ، وعندئذ لايلبثون ان يطيحوا بالمجلس القائم والعمدة الحالى لافساح المجال للتنمية والتقدم ، ثم يتكشف بعد ذلك انهم يستحوذون على كل مصدر يمكن أن تتحقق التنمية عن طريقه . ومن الناحية العاطفية البحتة كان راغبا فى اشراكى للاسهام بنصيب يسير ، وان لم يبين لى طبيعة الأعمال واقتصر كلامه على حدود العموميات . ثم ان انتخابات البلدة سوف تجرى فى السابع من يوليو ، وعندما يحل هذا الموعد يكون الجماعة التى ترفع شعار التقدم قد سيطرت على كافة مجالات التنمية والتقدم .

قلت له مع ذلك :

ـ لابد أن افكر فى هذا ياسيدى ، وما هو سهل لك اعتبره لغزا بالنسبة لى . ثم انه لابد لى من مناقشة المسألة مع مارى.

فقال : فى هذه النقطة اراك على خطأ . فالعنصر النسائى لا مجال له فى مسائل الأعمال ، فيما اظن .

ـ لكن المال مالها الموروث .

ـ المهم أن تنمى لها المال وتقدمه هدية لها . انهن يفضلن هذه المفاجأة .

ـ أرجو الا ابدو فى نظرك يامستر بيكر شخصا جاحدا لفضلك. لابد لى من التفكير . هل سمعت أن مارو للو سوف يذهب الى ايطاليا ؟

فبدت فى عينيه نظرة حادة وهو يقول :
ـ نهائيا ؟
ـ لا مجرد زيارة .
ـ حسنا . أرجو أن يتخذ خطوة لتأمينك فى حالة حـــدوث شىء له . انه ليس بالصغير السن ، هل حرر وصيته ؟
ـ لا أعرف .
ـ لو ان بعض أقاربه تدخلوا ، فقد تجد نفسك بلا عمل .
فلجأت الى أسلوب الغموض قائلا :
ـ انك اعطيتنى مادة للتفكير. لـكننى اتساءل ان كان يمكنك أن تعطينى فـكرة صغيرة عن متى تبدأ .
ـ بامكانى أن أقول لك هذا . ان التنمية تتوقف الى حد كبير على المواصلات .
ـ ان الطرق الـكبرى آخذة فى الزيادة .
ـ ومع ذلك فالوقت طويل أمامها . ان نوعية الرجال ونوعيـة الأموال التى نريد اجتذابهم واجتذابها لن يصلوا الا عن طريق الجو.
ـ وليس عندنا مطـار ؟
ـ هـذا صحيح .
ـ وفضلا عن ذلك فليس عندنا مكان لانشاء مطار دون هدم التلال المحيطة بالبلدة .
ـ وهى عملية باهظة التكاليف .
ـ اذن فما هى خطتك ؟
ـ ايثان . لابد أن تثق بى وتسامحنى . لايمكننى أن أقول لك هذا فى الوقت الحالى . لـكننى أعدك اذا أمكنك تدبير رأس مال ، فاننى سأعمل على وجودك فى طليعة المسـتفيدين . ان العـائلات القديمة لابد أن تتساند وتتكافل .
ـ هل مارولو فى المجموعة ؟
ـ لا بالتأكيد . انه يمضى فى طريقه الخاص مع أبناء جلدته .
ـ انهم يثرون هنا ، أليس كذلك ؟
ـ أكثر من اللازم . اننى لا أحب ان أرى هؤلاء الأجـانب يزاحمون ويتسللون .
ـ والسابع من يوليو هو الاختبـار الحاسم ؟
ـ هل أنا قلت هذا ؟
ـ لا . مجرد تخمين من جانبى .

ـ لابد انه كذلك .
وعند هذا الحد عادت مارى بعد انتهاء مشاورات ورق الحائط. وعلى الأثر قمنا بواجب الاستئذان وسرنا الهوينا عائدين الى البيت.
ولما سألتنى عن نتيجة اللقاء قلت لها :
ـ يريد أن أستخدم مالك كبداية اقوم بها. أما انا فلا اريد هذا.
ـ أنا أعرف انك تفكر فى أمرى ياعزيزى . لكننى اقول لك انك اذا لم تعمل بنصيحته فانك أحمق .
ولما حاولت قالت بعزم :
ـ خذ كلامى هذا يا ايشان : اذا لم تفعل ما يشير به عليك ، فسوف آخذ المال وأسلمه له بيدى .
ثم اضافت فجأة :
ـ هل نسيت ما قاله الطالع ؟
ـ يا الهى ! الطالع مرة اخرى !
ـ أن اعتقادى فيه راسخ .
ـ لو اننى ضيعت مالك لكرهتنى .
ـ لن اكرهك . انت طالعى ومالى . هذا ما قالته لى مارجى.
وعندما رأتنى أعارضها قالت فجأة بلهجة التهكم :
ـ امن أجل الحرص على المال تستكثر علينا المزيد ؟ اليس من حقى أن تكون لنا ستائر جديدة وماء ساخن يكفى لحمام اربعة اشخاص فى نفس اليوم وغسل الأطباق به ايضا ؟
ـ ليست المسألة هى هذا يامحبوبتى . اننى اخشى العواقب التى تجلبها كثرة المال .
واذا هى تقول بشراسة :
ـ اسمعوا وعوا ! ها هو ذال بائع فى محل بقالة لايملك شيئا ويشفل باله بما سيكون عليه الحال بعد الغنى ! انك تتصرف وكأنك تستطيع تحقيق الثراء فى اى وقت تريده !
ـ اظن ان هذا بامكانى .
ـ كيف ؟
ـ هذه هى المشكلة .
ـ انت لا تعرف ، والا لفعلت هذا قبل الآن .
هذا مجرد « تهويش » منك . دائما «تهوشين » .
وسرنا فى ظلام الليل الى البيت دون ان نتبادل كلاما آخر .

الفصل الثامن

بدا لى ذات مساء ان انهد دانى تيلور فى الجحر العفن الذى يعيش فيه ، فرايت شحمة مضلعة فى طبق قرب سريره النقالى ، وكان فى شر حال من الهزال والمرض ، وكان يصعب الا يشعر الانسان بالغثيان لرائحة المكان القذر والرجل القذر. وكان مفتوح العينين جامدهما ، وقد توقعت ان اراه يهذى بالحمى . فكانت صدمة لى ان سمعته يتكلم بوضوح وبالنبرات والأسلوب التى عهدتها فى دانى تيلور .

قال لى : ما الذى تريده يا ابث ؟

ـ أريد مساعدتك . أنت مريض .

ـ هل تظن اننى لا اعرف هذا ؟ اننى اعرف اكثر من اى انسان.

وتحسس خلف الفراش وجاء بزجاجة ويسكى مليئة الى ثلثها ، وقال : اتأخذ جرعة ؟

ـ لا يادانى . هذا ويسكى غال .

ـ عندى أصحاب .

ـ من أعطاك الزجاجة ؟

ـ ليس هذا من شأنك يا ابث .

وتناول جرعة ، فصعد التلون الى وجهى ، واردف قائلا :

ـ ان صاحبى اراد أن يتكلم فى الأعمال ، لكننى استغفلته . اننى تظاهرت بالاغماء قبل أن يستمر فى الكلام . هل تريد أن تتكلم فى الأعمال يا ابثان ؟ لأنه يمكن أن أشعر بالاغماء مرة ثانية!

ـ هل تشعر بأى احساس من ناحيتى يادانى؟ اى ثقة...اى شعور؟

ـ بالتأكيد . لكن اذا نظرنا فى الأمر فاننى سكير ، ومشاعر السكير كلها فى الخمر .

ـ لو أمكننى أن أدبر المال اللازم ، فهل تقبل أن تتقدم للعلاج؟

والمزوع فى الموضوع انه استحال بسرعة الى طبعه الأصلى، وقال :

ـ يمكن أن أقول اننى اقبل يا ابث . لكنك لا تعرف طبيعة

السكير . انني قد آخذ المال واسكر به عن آخره .
ـ لنفرض انني دفعته مباشرة الى المستشفى او دار العلاج ؟
ـ من السهل أن اذهب مشبعا بكافة النوايا الطيبة ، ثم اخرج بعد ايام قليلة . لايمكنك أن تأتمن سكيرا يا ايث .
ـ ألا تريد ان تنقذ نفسك من هذه الحالة يادانى ؟
ـ اظن انني لا اريد .
ثم تناول جرعة اخرى من الزجاجة وقال على اثرها بصفاء غريب:
ـ لقد عرضت ان تقدم أجر علاجي يا ايث . لـكنك لا تملك المـال اللازم .
ـ بامكاني تدبيره . ان مارى ورثت بعض المال من اخيها .
ـ وتريد ان تعطيني هـذا المـال ؟
ـ نعم .
ـ حتى برغم قولي لك ألا تثق بسكير . حتى برغم تأكيدى لك اني قد آخذ مالك واحطم قلبك ؟
ـ انك تحطم قلبي الآن يادانى .
وخطرت لى فكرة فاضفت قائلا :
ـ هل كان بيكر هو الذى اعطاك زجاجة الويسكى ؟
ـ نعم .
ـ هل اراد ان توقع له على شيء ؟
ـ نعم . لـكنني تملصت بالاغماء .
قال هذا ضاحكا ثم رفع الزجاجة الى شفتيه ، فقلت له :
ـ هذا ما اردت أن اقول لك يادانى . هل كان يريد منك ان تبيع له ارض قصر العائلة المهدم فى الريف ؟
ـ نعم .
ـ كيف حدث انك لم تبعها حتى الآن ؟
ـ لأنني اظل من الأشراف ، ولا ينقصني الا اخلاقهم .
ـ لا تبع الأرض يادانى . تمسك بها .
ـ وماذا يهمك منها ـ ولم لا ؟
ـ من اجل كرامتك .
ـ لم تبق لى كرامة . حسب قديم فقط .
ـ على كل حال لا تبع الأرض يادانى . انها ذات قيمة كبيرة. وبيكر يعلم هذا . فهو لايشترى شيئا لا تـكون له قيمة .
ـ وما قيمتها المحتملة ؟

ـ انها المكان الوحيد الذى يصلح لاقامة مطار .
ـ فهمت .
ـ اذا لمسكت ، فيمكن ان تكون هذه بداية جديدة لك يادانى. بامكانك أن تباشر العلاج، وبعد شفائك سوف تجد عشا مليئا بالبيض.
ـ ربما . لكن الأفضل ان ابيعها واشرب بثمنها .
ثم اردف بضحكة غريبة :
ـ هل تريد الأرض يا ايثان ؟ هل لهذا سبب جئت الى هنا ؟
ـ اريدك أن تكون بخير .
ـ انا بخير .
ـ اسمع يادانى . انت تملك شيئا يريده جماعة من المواطنين بعيدو النظر ويحتاجونه . وقد سمعت انهم يفكرون فى وضعك فى احدى المصحات لكى تنال ما تحتاج اليه من علاج .
ـ انهم لا يجسرون على هذا .
ـ بل يستطيعون . ان القاضى يمكنه الحكم بعدم أهليتك لادارة العقار ، وتعيين حارس عليها ، واستطيع أن اضمن من سيكون. وسوف يكون لكل هذا تكاليف كثيرة ، وهكذا تباع أرضك لتغطية التكاليف ، ولك أن تخمن من سيكون المشترى .
لمعت عيناه وراح يصفى منفرج الشفتين ، وما لبث أن قال :
ـ انت تحاول تخويفى يا ايث .
ـ لكننى قلت لك ما سوف يحدث .
ـ اننى أوافقك . لكن السكير له ايضا قدراته الخاصة . بامكانى أن أقاومهم ، وانا على استعداد لهذا منذ هذه اللحظة .
ـ يا لك من شجاع ! هذا ما اردت ان اسمعه منك .
فنظر الى من فوق عنق زجاجة الويسكى كما ينظر من فوق بندقية ، وقال :
ـ هل تقرضنى نقود مارى ؟
ـ نعم .
بغير ضمان ؟
ـ نعم .
ـ مع علمك بأن فرصة استردادها هى بنسبة واحد الى الف ؟
ـ نعم .
ـ هناك شىء قبيح فى السكير يا ايثان . اننى لا اصدقك . هل تضع النقود بين يدى ؟

ـ فى اى وقت تشاء .
فرفع الزجاجة الى شفتيه وشرب منها طويلا . ثم قال وقد زادت عيناه لمعانا وان بدتا باردتين كعيني افعى :
ـ هل يمكنك احضار النقود هذا الأسبوع يا ايث ؟
ـ نعم .
ـ يوم الأربعاء ؟
ـ نعم .
ـ هل معك الآن دولاران ؟
لم يكن معى مصادفة أكثر من هذا القدر ، وكانت نقودا نثرية فاحتواها فى راحة يده الممدودة . وقد عمد الى الزجاجة فافرغ باقيها ثم القاها على الأرض قائلا :
ـ هل تعرف يا ايث ان العلاج يكلف حوالى الف دولار ؟
ـ ليكن .
ـ هذا مضحك يا ايث. انت تتصور اننى سأقدم ارضى كضمان ، وتراهن فى نفسك على ان شرابا بقيمة الف دولار سوف يقتلنى ، وهكذا يسقط مطار فى حجرك كما تسقط الثمرة .. !
ـ هذا كلام سخيف يادانى . الا يمكنك ان تتصور ان قصدى هو خيرك ؟
ـ لا . ومع ذلك فاننى سأتصرف بطريقتى الخاصة . اننى اشعر بجفاف ، والزجاجة قد فرغت . سأخرج الآن . والثمن هو الف دولار .
ـ كما تشاء .
ـ والمبلغ بالنقد يوم الأربعاء .
ـ سوف أحضره .
ـ لامكاتبات ، ولا امضاءات ، ولا اى شىء . لا تعتمد يا ايث على الصداقة التى جمعتنا فى الماضى . انا غير مدين لك بأى ولاء ولا ارتباط . وما سوف تناله لن يكون أكثر من ضحكة من الأعماق.
ـ كل ما اطلبه منك هو ان تحاول .
ـ اعدك بهذا يا ايث . لكن آمل ان اكون اقنعتك ماهو وعد السكير. ما عليك الا احضار النقود . ولك ان تبقى الآن ماشئت ، فان بيتى هو بيتك . انا خارج الآن . اراك يوم الأربعاء يا ايث.
وانحدر من الفراش وسار الى الخارج مترنحا متطاوحا .
لبثت مكانى برهة أراقب ذوب الشمعة وهو يتساقط فى الطبق.

كنت واثقا ان فى ذلك « الحطام » شيئا يبرر الآمال التى تعلقت لانتشال دانى تيلور من وهدته . وبعد فترة موحشة أطفأت الشمعة وعدت الى بيتى .

كانت مارى نائمة وقد أفتر ثغرها عن ابتسامة هانئة . وعندما تسللت الى جانبها فى الفراش أفاقت وقالت :

ـ اظن انك جوعان .

ـ نعم يانور عينى .

ـ وماذا تريد ؟

ـ شطائر بها بصل .

ـ ساعد لك ولى شطيرتين .

وهبطت الى المطبخ ثم عادت بعد قليل ومعها الشطيرتان وكوبا لبن . فقلت بين المضغ والشرب :

ـ اريد الف دولار .

ـ هل المسألة تتعلق بشىء قاله لك مستر بيكر ؟

ـ الى حد ما . ولكنها مسألة ستبقى سرية .

ـ لابأس . اكتب الشيك .

ـ لا ياحبيبتى . أريد منك المبلغ نقدا . ولك ان تذيعى فى البنك انك سوف تشترين أثاثا أو سجادا جديدا أو اى شىء .

ـ ومتى تريد المبلغ ؟

ـ غدا .

ـ ان هذه البصلة حامية . ان رائحتى ستفوح كريهة .

ـ أنت محبوبتى دائما .

ـ لايمكنى أن أنسى حكاية مارولو وحضوره الينا بكيس الحلوى.

ـ لله فى خلقه شئون .. !

ـ هل ستعود الى الهذر ؟ هيا بنا ننام .

لكن النوم كان مستعصيا. وظلت البقع الحمراء تسبح أمام عينى.

رحت أسائل نفسى : الآن وقد وطنت النفس على تغيير طريقى ، فهل أستطيع وقف العجلة عن الدوران الى الغاية المنشودة؟ شعرت ان هذا ممكن ، لكننى قدرت اننى لا أريد .

وفى استعراضى للأحداث كانت تتكشف لى تفصيلات لم افطن اليها وقتها . ان مارى على حق فى استغرابها لزيارة مارولو . اننى رأيت فى هذا بادرة للشكر على اننى لم أخن عهد الأمانة والصدق. لكن تساؤل مارى جعلنى أعيد التفكير حتى بدت لى زاوية فاتتنى

فى حينها . ان مارولو لم يكافئنى عن شىء مضى ، ولكنه جاء « يرشونى » عن أشياء قادمة . انه لايهتم بى الا من حيث أن اكون نافعا له . ولابد انه يريد شيئا منى أو يحتاج الى شىء . وبوسعى ان اكتشف هذا . فلو اننى سألته شيئا كان يرفضه عادة ثم أجابنى اليه ، اذن لتهيأ لى ان أعرف انه واقع فى ورطة شديدة .

وفى ابان هذه الخواطر سمعت فجاة صرير درجات السلالم الخشبية العتيقة ، وبدا لى ان ايلين لابد أن تكون عادت الى عادتها السابقة من السير اثناء نومها .

اننى أحب ايلين بالطبع ، لكنها تخيفنى احيانا . انها تغار من اخيها ، ويخيل الى احيانا انها تغار منى .

كانت تمر فى هذه الفترة العسيرة من حياة المراهقات التى يكتنفها الغموض والتى تلوذ فيها البنات بالتكتم والسرية . وهذا مادفعنى الى مراقبة حركاتها عن كثب وملاحظة دوراتها الخفية فى البيت . جيئة وذهابا . كانت مثل قطة ليلية . وقامت عندها عادة المشى اثناء النوم . وعندما سمعت الآن وقع خطواتها وهى تهبط السلالم تسللت بهدوء من جانب مارى المستغرقة فى النوم ولبست رداء الحمام واتجهت الى السلالم خفيف الوطء ، ايمانا منى بان المسافر فى غومه ينبغى الا يوقظ بعنف .

كنت أعرف بخبرتى ان الهبوط فى سلالم بيتنا من ناحية الحائط لايحدث صريرا . وهكذا هبطت دون ان يسمع لوقع قدمى صرير . وكان الظلام سائدا الا من انعكاس ضوء مصباح الشارع ، وذلك الوهج النورانى الذى بدا لى انه ينبعث من رداء ايلين الأبيض حتى بدا فى الظلام كهالة تحف بها .

لقد وقع نظرى عليها واقفة امام الدولاب الزجاجى الواجهة الذى نحتفظ فيه بمخلفات تاريخ الأسرة التى كدسها أجدادى من رحلاتهم الطويلة فى سفن صيد الحيتان عبر بحار العالم .

كنت أعد هذا الدولاب مكانا مقدسا امتز بذخائره ، وعلى الأخص ذلك الحجر المكور نصف الشفاف الذى يبلغ محيطه اربع بوصات وبوصة ونصفا عند قمته المستديرة . وكان لهذا الحجر خاصية غريبة : فهو يبدو وكأنه كائن حى ، وملمسه به طراوة يسيرة كاللحم ، حتى كانت تنبعث منه دائما حرارة عقب الملامسة .

كان هذا الحجر السحرى العجيب الذى جاء به أجدادى من

الصين معدودا لدى الأسرة « تعويذة الحظ » التى يتفاءل بها كل انسان . وكان للدولاب قفل نحاسى عتيق به مفتاح نحاسى مربع يترك دائما فى القفل .

والآن قد وقع نظرى على ابنتى النائمة ممسكة بالحجر بين يديها تداعبه بأصابعها وتدلله كأنما هو كائن حى وتضمه الى صدرها الصغير وتضعه على خدها وتهدهده كجرو وتشدو بأغنية خافتة تشف عن الحنين والبهجة . وكانت فى ابنتى أحيانا نزعة مدمرة حتى خشيت أول الأمر أن تتجه الى تحطيم الحجر السحرى أو تعمل على اخفائه فى مكان بعيد ، بيد أننى رأيتها الآن كأم ، وعاشقة ، وطفلة ، اجتمعن بين جوانحها .

لقد خفت أن افزعها اذا أيقظتها . لكنى مالى أتدخل ؟ لم يكن هذا كابوسا مليئا بالألم أو الخوف ، بل كان شيئا أقرب الى المسرة والاندماج فيما لايدركه العقل الواعى ، فلماذا أفسد عليها هذه المشاعر؟ هكذا ابتعدت بهدوء وجلست فى مقعدى الكبير انتظر .

وبعد فترة أعادت ايلين التعويذة الى مكانها وأغلقت الباب الزجاجى وأدارت المفتاح فى القفل . ثم استدارت ومرت بمقعدى وانشأت تصعد الدرج .

وانتظرت برهة ثم تبعتها ، فوجدتها فى فراشها نائمة والغطاء فوقها محكما ، وكانت تتنفس بهدوء من خلال فمها وبدا محياها كمحيا طفل نائم .

تملكتنى وقتئذ رغبة جامحة ، فهبطت السلالم مرة أخرى وفتحت الدولاب الزجاجى وأخذت الحجر السحرى بين يدى .

وجدته دافئا من أثر امساك ايلين به. وعندما أجريت أصابعى حوله شعرت براحة . وأيقنت ان هذا الاحساس جعلنى قريبا من ايلين .

ترى هل كان ذلك ايضا احساس ايلين ، ابنتى ، سليلة أسرة هاولى ؟

الفصل التاسع

جاء الربيع يوم الاثنين غادرا ، فقد امطرت السماء فجاة ، وهبت الريح متقطعة لافحة .

وعندما ذهبت لفتح محل البقالة وجدت جو مورفى صراف البنك دقيقا فى موعده ، وقد ابتدرنى قائلا :

ـ سمعت انك كنت فى بيت رئيسي .

ـ انني كنت فى حاجة الى مشورته. وقد دعانى الى فنجان شاى.

ـ الظاهر انها مسالة استثمارات .

ـ ان مارى تريد بعض الأثاث الجديد . وعندما تريد المراة شيئا فانها تصوره أول الأمر فى صورة الاستثمار المفيد .

ـ قل لى . سمعت ان رئيسك سوف يقوم برحلة الى بلاده فى ايطاليا .

ـ لا أعرف . من الغريب انه لم يقم بمثل هذه الرحلة قبل الآن .

ـ ما رايك فى فنجان قهوة عند « فورماستر » ؟

ـ يجب أن أقوم بالكنس . سوف يكون العمل كثيرا بعد عطلة الفصح .

ـ آه ، هيا بنا ، الدنيا بخير . ان الصديق الشخصى لمستر بيكر لابد أن يتسع له الوقت لشرب فنجان قهوة .

لم يبد كلامه غمزا ولا تعريضا . اذ كانت لديه القدرة على ازجاء الكلام بلهجة البراءة وحسن القصد .

وعندما استقر بنا الجلوس فى مطعم ومقهى فورماستر قال جو مورفى بين رشفات القهوة مستانفا كلامه عن مارولو .

ـ لا أعرف كيف خطرت لى هذه الفكرة التى جعلتنى اتساءل عن سر رحلة رئيسك المزمعة . وربما كان السبب هو قوله انه جاء الى هذه البلاد منذ اربعين سنة . فى ظنى انه جاء منذ ٣٥ أو ٣٧ سنة . لكن ليس منذ ٤٠ سنة .

ـ اعتقد انه من الصعب ان اجاريك فى افكارك .

ـ يعني ان ذلك كان سنة ١٩٢٠ . وفي سنة ١٩٢١ صدر اول قانون للهجرة .
ـ وماذا ؟
ـ في سنة ١٩٢٠ ممكن وصوله . في سنة ١٩٢١ غير ممكن .
ـ وماذا ؟
ـ عقلي يقول لي انه دخل البلاد بعد سنة ١٩٢١ من البـــاب الخلفي . وعلى هـــذا لايمكن ان يعود الى ايطاليا لانه ليس لديه جواز سفر يمكنه من العودة الى هنا .
ـ رباه ! الحمد لله انه ليس لي تفكير اهل البنوك !..
ـ لو كنت منهم لـكنت احسن مني . فانا كثير الـكلام ! لوعاد صاحبنا مارولو الى هذه البلاد لـكنت ساذجا يشار اليه بالبنان . انتظر . ساقوم معك . القهوة على حسابي .
وعاد مورفي يقول لي ونحن نعبر الشارع :
ـ لا تقل لرئيسك الأفخم انني المحت لك انه سوف يكون «طعما» مغريا لادارة الجوازات والهجرة .
ـ ولم افعل هذا ؟
ولما وصلنا الى الحارة اخرج مفتاح الباب الخلفي للبنك قائلا :
ـ لنستعد الآن لفتح المعبد المقدس .
فقلت له :
ـ اراك اليوم ياجو مليئا بالغرائب . ان عيد الفصح لم يؤثر في طباعك .
ـ انني اعني ما أقول . في تمام التاسعة بالدقيقة نقف عاريي الرءوس امام باب المعبد المقدس . وعندئذ يدار القفل السري ويركع الـكاهن بيكر امام الخزانة ويفتحها ، ثم ننحني جميعا في خشوع امام المعبود العظيم : البنكنوت .
ـ انت مخبول ياجو .
ـ ربما . لعنة الله على هذا القفل . اسهل للانسان ان يفتحه بمفك لا بمفتاحه هذا .
وعالج ادارة المفتاح في القفل مرات ثم رفسه مرات حتى انفتح اخيرا بعنف . واخرج من جيبه قطعة من الورق المقوى وحشرها في ثقب القفل . فكدت ان اقول له اليس في هـــذا خطورة ، لـكنه استبقني الى الرد قائلا :
ـ ان هذا القفل الملعون لا يغلق بسهولة . وبالطبع فان بيكر

يتأكد بنفسه بعد فتح الخزانة . لا تذكر شكوكى لمارولو ، فهو انسان حقود .

ـ حسنا ياجو . سأفعل كما قلت .

وتحولت الى باب محل البقالة الخلفى فى الجانب الآخر للحارة . وفى الداخل بدا المحل متغيرا وجديدا فى نظرى. ولم لا، اذا تغيرت النظرة الى شىء بدا جديدا فعلا .

كان صمام « السيفون » فى « التواليت » الصغير مختلا، ولهذا كان ينبعث منه صوت هسيس خفيف مستمر ، ولم يهتم مارولو بتغيير الصمام لأن استهلاك المياه لم يكن مقننا . وعندئذ ذهبت الى الميزان العتيق وجئت منه بصنجة مثقوبة زنة رطلين وعلقتها فى سلسلة « السيفون » ، فتدفق الماء فى « التواليت » بقوة واستمر يتدفق . ولما يممت شطر الباب الأمامى لكى أنصت سمعت الصوت واضحا لاشك فيه . كان صوتا لا تخطئه الأذن . وبعد أعدت الصنجة الى مكانها من الميزان وجلست الى مكانى خلف المنصة . واسترعى نظرى بين المعلبات قناع الفار ميكى ماوس يبتسم من فوق علبة الحبوب ، فتذكرت وعدى لابنى آلان ، ومددت الحامل الى الرف وأنزلت علبة الحبوب ووضعتها تحت سترتى فى المخزن . ولما عدت الى مكانى خلف المنصة كان الفار التالى يبتسم لى من فوق علبته.

ومدت يدى خلف المعلبات واخرجت كيس « الفكة » الصغيرة ووزعتها فى ادراجها الصغيرة فى مسجلة النقد . وعندئذ تذكرت شيئا آخر ، فمددت يدى الى مسافة أقصى حتى عثرت على المسدس العتيق عيار٣٨ الذى ظل فى موضعه هذا منذ عهد طويل. ولما فتحته وجدت الرصاص مخضرا من الصدأ . وكانت خزانته بطيئة تتحرك بصعوبة . فوضعت السلاح الكريه وربما الخطر فى الدرج أسفل مسجلة النقد ، ثم جذبت « مريلة » نظيفة ولففتها حول وسطى وربطت أطرافها .

ألا ما أعجب تصاريف الأيام . من منا لم يفكر فيها ويتساءل ان كانت الأحداث التى تعرض لنا وليدة مخطط مرسوم أم هى من ثمار تصوراتنا وأحلام اليقظة التى تعرض لنا ؟ لكننى أعلم اليقين منذ متى بدأت العب لعبة التصورات لأننى أعرف كيف بدأت بما سمعته من جو مورفى عن الشروط التى يراها لنجاح عملية سرقة بنك . منذ تلك اللحظة لم أنقطع عن استعادة هذه الكلمات بما هو أقرب الى السرور الصبيانى . وكانت اللعبة تمضى متوازية مع مجرى

العمل فى المحل ، وكل ما كان يحدث بدا وكأنه تأكيد لواقعهـا : « التواليت » الذى يتسرب منه الماء ، وقناع الفأر ميكى ماوس الذى طلبه آلان ، وكيفية فتح خزانة البنك ، وقطعة الورق المحشورة فى قفل باب البنك الخلفى فى الحارة ... كانت اللعبة تنمو وتتضخم بمضى الوقت ، ولـكنها ظلت مع ذلك فى نطاق التخيل حتى صبـاح اليوم . فكان وضع الصنجة فى سلسلة « السيفون » هو اول اسهام مادى فى اللعبة ، وكان اخراج المسدس القديم هو الاسهام الثانى . وبدأت الآن أفكر فى توقيت العملية . وهكذا اكتسبت اللعبة الطابع الدقيق المحدد .

اننى مازلت أحمل ساعة أبى الأثرية ذات العقارب الغليظة والأرقام الـكبيرة السوداء ، وهى ساعة عجيبة تبين الوقت بدقة . وفى صباح اليوم وضعتها فى جيب قميصى قبل أن أبدأ كنس المحل . وقـد راجعت الوقت بدقة ، فما كادت الساعة تؤذن بالتاسعة الا خمس دقائق حتى فتحت أبواب المحل الأمامية وأخذت أضرب بالمـكنسة أولى الضربات على الرصيف لازالة ماتراكم من قاذورات خـلال عطلة العيد .

ان بنكنا مؤسسة عجيبة حقا ، مثل ساعة أبى! ففى تمام التاسعة الا خمس دقائق ظهر مستر بيكر قادما من شارع ايلم . ولابد ان موظفى البنك هارى روبين واديث آلدن كانا يراقبان حضوره . فقـد أسرعا بالخروج من مطعم ومقهى فورماستر وانضما اليه فى منتصف الطريق .

قلت : صباح الخير يامستر بيكر . صـباح الخير يا اديث . صباح الخير ياهارى .

فرد على قائلا :

ـ صباح الخير يا ايثان . انت محتاج الى خرطوم لتنظيف هذا المحصول !

ودخل ثلاثتهم الى البنك .

أسندت المـكنسة فى مدخل المحل ، وأخذت الصنجة من الميزان ، وذهبت الى ما خلف مسجلة النقد وفتحت الدرج وبدأت سلسلة سريعة من الحركات التمثيلية الصامتة . فسرت الى المخزن ، وعلقت الصنجة فى سلسلة « التواليت » ، ورفعت طرف « المريلة » وعلقتها فى حزام الوسط ، ولبست معطفى الواقى من المطر ، ثم سرت الى الباب الخلفى ووارتيه . وما أن انطبق عقرب ساعتى الأسود على

رقم ١٢ حتى بدأ جرس مبنى المطافىء يرن مدويا مؤذنا بتمام الساعة التاسعة . فجعلت أحصي فى ذهنى ثمانى خطوات عبـــر الحارة ثم عشرين خطوة . وحركت يدى ولـكن لم احرك شفتى ، وسمحت بمرور عشر ثوان ثم حركت يدى مرة اخرى . كل هذا كنت اتمثله فى ذهنى : عشرون خطوة ، ثم ثماني خطوات ، كلها سريعة قاصدة ، وبعد ذلك اغلقت باب الحارة ، وخلعت معطفى ، وعدلت «المريلة» ، ودخلت « التواليت » ، ورفعت الصنجة من الســلســـلة وأوقفت تدفق الماء ، ثم عدت الى خلف مسجلة النقد ، وفتحت الدرج ، وفتحت العلبة التى اضع فيها قبعتى ثم اغلقتها وحزمتها بالرباط ، ثم عدت الى المدخل ، واخذت المـكنسة ، ونظرت الى الساعة : رأيتها جاوزت التاسعة بدقيقتين وعشرين ثانية ... نتيجة طيبة... لـكن مع تكرار العملية والتمرين يمكن اختصار الفترة الى أقل من دقيقتين .

وما كدت أفرغ من كنس نصف الرصيف حتى جاء ستوني رئيس نقطة البوليس خارجا من مطعم ومقهى فورماستر . وقد قال لى :

ــ صباح الخير يا ايثان . اريد نصف رطل زبدة ، ورطل لحم مقدد ، وزجاجة لبن ، وعشر بيضات . ان زوجتى خلت من كل شيء.

ــ حاضر . كيف حال الدنيا ؟

فأجاب وانا أعد له المطلوب :

ــ بخير . جئت منذ دقيقة ولـكن سمعتك فى « التواليت » .

ــ سيمضي أسبوع قبل ان اتخلص من كل ذلك البيض المسلوق الذى اكلناه فى العيد .

ــ هذه هى الحقيقة . ومع ذلك لابد للانسان ان يأكل ليعيش . كانت هذه النتيجة طيبة .

وقبل أن ينصرف قال لى :

ــ ما أخبار صاحبك دانى تيلور ؟

ــ لا اعرف . هل ارتكب مخالفة ؟

ــ لا . انه بدا فى حالة طيبة ، وكان نظيفا بصورة معقولة. كنت جالسا فى سيارة « الدورية » ، فطلب منى ان اشهد على توقيعه .

ــ عن اى شيء ؟

ــ لا أعرف . كانت معه ورقتان ، ولـكنه قلبهما لـكيلا ارى ما هما .

ــ ورقتان ؟

ـ نعم . وقد امضى مرتين ، وشهدت على امضائه مرتين .
ـ هل كان صاحيا ؟
ـ بدا كذلك . وكان محلوق الشعر وعليه ربطة عنق .
ـ ليتنى كنت أستطيع أن أصدق هذا !
ـ وانا مثلك . مسكين . ربما كانت هذه محاولة للانصلاح . لابد ان أعود الآن الى البيت .
وبعد انصرافه أتممت الجزء الأكبر من عملية الكنس وانا اشعر بالضيق .
ربما كانت المحاولة الأولى هى الأصعب .
لم ينقطع « الزبائن » عن الحضور افرادا وجماعات .
وحوالى الساعة العاشرة جاء مارولو ، ومن عجب انه مد يد المساعدة واخذ يزن ويغلف ويدق مسجلة النقد . انه لم يفعل هذا منذ فترة طويلة . وخيل الى انه كان نهبا للقلق واخذ يتأملنى خلسة كلما ادرت نظرى عنه . وحسبت ان هذا ربما كان من تأثير رفضى لعملية الرشوة . هكذا بعض النـــاس . اذا اريتهم امانتك ذهبوا يستقصون فيك خوافى الخيانة التى حدت بك الى ســلوك مسلك الأمانة ! ان هذه الفكرة اضحكتنى فى نفسى ، لـكننى لم أبد ادنى بادرة ظاهرية .
وحوالى الساعة الحادية عشرة جاءت زوجتى مارى وهى تتلألأ فى فستان قطنى جديد ملون . وقد بدت جميلة سعيدة ولـكنها كانت تلهث كما لو كانت قد فعلت شيئا سارا ولـكن خطرا . وهى قد فعلت هذا حقا . فانها اعطتنى مظروفا بنيا من ورق مانيلا السميك . وقالت لى :
ـ اظن انك ستحتاج الى هــذا .
ورمت مارولو بابتسامة عابرة . انها لم تكن تحبه أو تثق فيه وربما كان هذا لأن الزوجة لا تحب رئيس زوجهــا أو سكرتيرته الخاصة !
قلت لها :
ـ اشكرك . انت بعيدة النظر . آسف اذ لايمكننى ان اذهب معك فى نزهة فى الليــل !
ـ انت مشغول فعلا .
ـ حسنا . الم يخل البيت من كل شىء ؟
ـ صدقت . معى كشف باللوازم . هلا احضرتها معك فى المساء؟

اعرف انك مشغول جدا ولا يمكنك تجهيزها الآن .

ـ لكن لا تطلبى شيئا من البيض المسلوق .

ـ ابدا ياعزيزى . لسنة كاملة . بالمناسبة . مارجى تريد اخذنا للعشاء فى مطعم فورماستر الليلة . قالت انها لم تدعنا قبل ذلك .

ـ جميل .

ـ قالت ان شقتها ضيقة جدا .

ـ صحيح ؟

ـ اننى أعطلك عن العمل .

كانت نظرات مارولو مسلطة على المظروف البنى فى يدى لم تفارقه لحظة ، فوضعته خلف « المريلة » ودسسته فى جيبى . كان يعلم انه مظروف بنوك ، وكان يوسعنى ان اشعر ان عقله ذهب يستقصى وينبش مثل كلب يتصيد الفئران فى مستودع قمامة .

وبعد انصراف مارى تزايدت حركة البيع . واطل مستر بيكر برأسه ولما رأى الصف الطويل المنتظر للدور خرج قائلا :

ـ سأمر فيما بعد .

ولم تتوقف حركة العمل الا فى فترة الظهر ، عندما انصرف الناس كلهم الى تناول وجبة الغداء الخفيفة ، وتوقفت حركة المرور . عندئذ اخذت اشرب بقية زجاجة اللبن التى كنت فتحتها . ان كل شىء كنت آخذه من المحل لى او للبيت كنت ادونه فى الحساب ثم اخصمه من اجرى . وكان مارولو يسمح لى بأن احصل على لوازمى بسعر الجملة . وهذا فارق كبير . واظن اننى ما كنت أستطيع العيش بأجرى لو لم يفعل ذلك .

قلت له وقد جلست متكئا على المنصة :

ـ اشكرك للمساعدة . اننى لم ار ابدا مثل هذه الحركة .

ـ انت فتى طيب . وهم يحبونك .

ثم بدا لى ان اقوم بجس النبض ، فقلت :

ـ اراهن انك تتطلع الى شمس جزيرة صقلية . اننى كنت هناك فى زمن الحرب .

فأشاح عنى قائلا :

ـ اننى لم اقرر بعد . فقد تغيبت طويلا اربعين سنة . ولا اعرف احدا هناك .

ـ ليتنى كنت استطيع ان انال اجازة فى ايطاليا ـ بغير بندقية

ولا ملابس ميدان . ان اربعين سنة مدة طويلة فعـــلا . في اي سنة جئت ؟

ـ ١٩٢٠ ... مدة طويلة .

بدا ان جو مورفي اصاب كبد الحقيقة ، وربما كان رجال البنوك والشرطة والجمارك هم اصدق الناس غريزة .

ثم خطر لي ان اقوم بعملية جس نبض اخرى اعمق . ففتحت الدرج واخرجت المسدس والقيته على المنصـــة . فوضع مارولو يديه خلف ظهره قائلا :

ـ ما هذا يا فتى ؟

ـ خطر لي انك ربما تريد استخراج ترخيص بهذا ان لم يكن له ترخيص . ان قانون احراز الأسلحة صارم .

ـ من اين لك به ؟

ـ انه كان هنا طول الوقت .

ـ انني لم اره ابدا . انه لايخصني . انه يخصك .

ـ لايخصني . وانا ايضا لم اره من قبل . ونظرا لوجوده هنا ، الا ترى ان الأفضل هو الحصول على ترخيص ؟

ـ قلت لك انني لم اره ابدا . انني لا احب الأسلحة .

ـ هذا مضحك. كنت اظن ان رجال المافيا الكبار يحبون الأسلحة.

ـ ما قصدك ؟

فتظاهرت بضحكة رنانة بريئة قائلا :

ـ كنت اسمع ان جميع ابناء صقلية هم من المافيا .

ـ كلام مجانين ـ انا لا اعرفه حتى ما هي المافيا ؟

فاعدت المسدس الى الدرج وقلت :

ـ من يعش يرى . على كل حال ربما اقدمه الى ستوني واقول له انني وجدته متروكا خلف اي شيء ، وهذا ما حدث فعلا .

ـ افعل هـــذا . انني لم اره في حياتي . ولا اريده ـ وهو لايخصني .

ـ حسنا . ليكن ما تقول .

هكذا زرعت الخوف في نفس رئيسي . فان استخراج ترخيص باحراز سلاح يتطلب اجراءات مطولة ـ تماما مثل اجراءات استخراج جواز سفر .

مهما يكن فقد تمالك مارولو . وعاد يقول :

ـ انت فتى طيب . وصديق مخلص ايضا .

ـ هذا ما كان يقوله جدى الأكبر ، الكابتن هاولى .
ـ اننى امضيت طول يوم الأحد افكر .
كنت أعلم انه قلق بصدد مسألة « الخمسة فى المائة » ، فواجهته بها فورا اختصارا للوقت .
ـ تقصد حكاية الخمسة فى المائة ؟
فنظر الى باعجاب قائلا :
ـ نعم . انت ذكى ايضا .
ـ لست من الذكاء مع ذلك بحيث أشتغل لحسابى .
ـ انك عملت هنا مدة طويلة ـ ١٢ سنة .
ـ صحيح. مدة طويلة. وهى كافية لحدوث تغيير ، الا ترى هذا ؟
ـ وانت لم تختلس شيئا من « الفكة » ، ولم تأخذ معك لوازم البيت دون تقييدها فى الحساب .
ـ ان الأمانة فى طبعى .
ـ لا تمزح . اننى اقوم بالمراجعة ، واعرف .
ـ يمكنك أن تعلق « ميدالية » على صدرى .
ـ كل الناس تسرق ـ بعضهم اكثر وبعضهم اقل . لكن انت لا.
ـ ربما كنت انتظر لكى اسرق « البضاعة » كلها !
ـ لا تمزح . ان ما اقوله هو الحقيقة .
ـ الفيو . عندك جوهرة . فلا تدعها كثيرا ، والا انكشف زيفها.
ـ لماذا لا تشاركنى فى المحل ؟
ـ بأى شىء ؟ بماهيتى ؟
ـ سندبر هذا بطريقة ما .
ـ وعندئذ لايمكننى أن اسرق منك دون ان اسرق نفسى !
فضحك تقديرا ، وقال :
ـ انت غاية فى الذكاء يافتى . لكنك مع ذلك لا تسرق .
ـ ان كنت تعنى ما تقول ، فعليك ان تفكر فى طريقة اتمكن بها من المشاركة ، وسابحث المسألة . لكننى احذرك ـ فاننى لا أملك مالا .
ـ سندبر هذه المسألة .
ـ لكن سوف يكون لى مالٌ فيها بعد .
سلط نظراته على طويلا ، وقال بصوت خافت :
ـ كذا ! كذا ! على كلّ حالٍ انت ولد طيب .
وهز يدى مصافحا ثم خرج على الأثر .

على انه عاد ثانية وقال بانفعال :
ـ لك ان تأخذ ذلك المبلغ .
ـ اى مبلغ ؟
ـ الخمسة فى المائة .
ـ لماذا ؟
ـ لك ان تأخذه . يمكنك ان تشاركنى فى المحل بمبالغ صغيرة ، فقط عليك ان تطالب بستة فى المائة .
ـ لا .
ـ ماذا تقصد بقول لا ، اذا كنت انا اقول نعم ؟
ـ لست فى حاجة اليه يا الفيو . لو كنت فى حاجة اليه لأخذته ، لكننى فى غير حاجة .
فزفر من أعماقه .
لم يكن العمل متواصلا فى فترة المساء كما كان فى الصباح. وفى فترة الركود فيما بين الثالثة والرابعة جاء مستر بيكر. وقد انتظر برهة حتى انصرف آخر « زبون » ، وقال لى :
ـ هل عرفت يا ايشان ان مارى سحبت الف دولار ؟
ـ نعم ياسيدى . قالت لى انها ستفعل ذلك .
ـ هل تعرف لماذا تريد المبلغ ؟
ـ بالتأكيد ياسيدى . انها كانت تتكلم عن هذا منذ شهر . انت تعرف النساء . تجديد الأثاث دائما .
ـ الا تظن ان من البلاهة صرف المبلغ فى هذا ؟ قلت لك امس انه سيفتح الباب لشىء .
ـ هذا مالها ياسيدى .
ـ لم اكن اكلمك عن بعثرة المال يا ايشان . كنت اكلمك عن استثمار مضمون . فى رأيى انه بالألف دولار هذه يمكنها تجديد الأثاث فى خلال سنة مع بقاء الألف دولار كما هى .
ـ لايمكننى بامستر بيكر منعها من انفاق مالها الخاص .
ـ الا يمكنك اقناعها يا ايشان ؟
ـ لم يخطر هذا ببالى .
ـ حاول يا ايشان ان تجعلها تعيد ايداع المبلغ فى البنك . او قل لها ان تضع المبلغ فى يدى . انها لن تندم على هذا أبدا .
ـ انه مال آل اليها من أخيها ياسيدى .
ـ أعرف هذا ، انك تخيب ظنى فيك يا ايشان . اذا كنت تريد

أن تكون لك قيمة فلابد أن تكون صاحب الكلمة فى بيتك . وفى الامكان تأجيل شراء الأثاث الجديد فترة اخرى .

ـ بامكانى هذا . لكن ليس بامكانها .

وخطر لى فى هذه اللحظة أن رجال البنوك لهم أعين بها أشعة اكس تكتشف النقود ، وانه ربما كان يرى فى هذه اللحظة المظروف البنى من خلال ملابسى . فاضفت قائلا :

ـ سوف أحاول اقناعها يامستر بيكر .

ـ هذا اذا لم تكن أنفقت الألف دولار فعلا . هل هى الآن فى البيت ؟ ..

ـ قالت انها ستركب الأتوبيس الى بلدة « ريدجهابتون » .

ـ يااله السموات! اذن فقد ضاع الألف دولار فى صالات المزادات!

ـ حسنا . لايزال عندها بعض مال آخر .

ـ ليس هذا بيت القصيد . ان أملك الوحيد هو المال .

ـ المال يجلب المال ، كما قلت .

ـ بالضبط . ضع هذا نصب عينيك ، والا بقيت بائعا فى محل بقالة طول عمرك !

ـ انا آسف لهذا ياسيدى . هل تحب زجاجة « كوكا » ؟

ـ نعم . على بها .

ولم يكن بامكانه أن يشرب من الزجاجة ، فجئت بكوب وأفرغتها له ، فشربها كارها وشرب معها غضبته . وقال فى النهاية وهو ينصرف متجها الى بيته :

ـ كلمها واقنعها !

عجبت لسلكه . ترى هل احتاج لارتيابه فى الأمر ؟ لم أرجح هذا . أغلب الظن ان احتياجه كان بسبب عصيان أمره وهو الذى اعتاد أن يأمر فيطاع ، ويبذل النصح للانسان فينصاع !

وقبيل موعد اغلاق المحل اتصلت تليفونيا بمارى وقلت لها :

ـ يانزهة النفوس ! سوف أتأخر قليلا .

ـ لاتنس اننا سنتناول العشاء مع مارجى فى مطعم فورماستر.

ـ انا متذكر .

ـ الى متى تتأخر ؟

ـ من عشر دقائق الى ربع ساعة . سأتمشى الى الميناء للفرجة على مركب تطهير القاع .

ـ لأى سبب ؟

ـ اننى افكر فى شرائها .
ـ لك أن تهزل . لكن لا تتأخر . فلابد ان تغتسل وتغير ملابسك . مطعم فورماستر كما قلت لك .
ـ لن اتأخر ياحبة قلبى ومهجتى ! ان مستر بيكر حمل على حملة شعواء لأننى تركتك تنفقين ألف دولار .
ـ وما دخل هذا التيس العجوز ؟
ـ مارى !.. مارى !.. الجدران لها آذان !
ـ قل له ان يذهب الى حيث !
ـ لن يذهب . وفضلا عن هذا فهو يعتقد انك مغفلة .
ـ ماذا ؟
ـ ... واننى زوج هزيل ـ وانت تعرفين من انا !
فاطلقت ضحكتها العذبة التى طالما اسكرتنى ، وقالت قبل ان تضع السماعة :
ـ اسرع الى البيت ياحبيبى . اسرع !
لم تكن وجهتى الميناء ذاته ، ولكن كشك دانى تيلور المجاور للميناء ... ولما اقتربت منه اخذت أصفر لحنا قديما يعرفه .
كان الكوخ خاويا ، لكننى كنت واثقا انه كان مختبئا بين الحشائش الطويلة أو بين كتل الأخشاب الضخمة التى كانت ملقاة فيما حول المكان . ولما كنت أعرف انه سوف يعود الى الكوخ حالما انصرف ، فقد أخرجت المظروف البنى من جيبى ووضعته فوق فراشه القذر ، ثم ابتعدت ومازلت أصفر ، فيما عدا لحظة ناديت فيها بصوت خافت : « الى اللقاء يادانى . حظا سعيدا » .
وتابعت طريقى وانا أصفر الى الشوارع المطروقة حتى وصلت الى بيتى وبيت آل هاولى .
وجدت مارى بادية الانفعال وهى تستعد لوليمة العشاء فى مطعم فورماستر . ولا أذكر اننا خرجنا يوما للعشاء فى مطعم ، فان هذا ليس فى طاقتنا ، وقد نسينا هذه العادة .
كانت مارى منهمكة فى كى الملابس وفى اصدار مختلف الأوامر والنواهى للأولاد للتصرف فى نطاقها فى فترة غيابنا عن المنزل ، حتى ان الأولاد انفسهم كانوا يراقبون ما يجرى مبهورين .
كنت املك اربع بذلات ـ وهى عدد كاف لبائع فى محل بقالة ، وكانت جميعا مصفوفة على الكراسى بعد كيها . ولما سألت مارى ايها البس اجابت :

ـ اظن ان الافضـــل ان تلبس البذلة « دوريان جراى » ، فالمناسبة رسمية وغير رسمية .
ـ مع ربطة العنق المنقطة ؟
ـ طبعا .
ولـــكن ايلين تدخلت قائلة :
ـ بابا ! لا تلبس ربطة عنق منقطة ! فانت عجوز .
ـ لست عجوزا . انا شاب ، ومرح ، وطائش !
ـ سوف تكون مثل اللقلق الضاحك ! الحمد لله اننى لن اشترك فى الوليمة !
ـ وانا احمده ايضا . من اين جئت بفكرة اننى لقلق عجوز ؟
ـ لاباس . انت لست عجوزا ، لـكنك عجوز بالنسبة لربطة عنق منقطة .
ـ انت بنت متزمتة ! مارى . هل ترين اننى سأشـــبه اللقلق الضاحك ؟
ـ دعى اباك وشانه ، فلابد له ان يغتسل. اننى وضعت قميصك على السرير .
وقال آلان :
ـ اننى انجزت نصف موضوع مسابقة « احب امريكا » .
ـ هذا بديع. لاننى انوى عند دخول الصيف ان اجعلك تشتغل.
ـ اشتغل ؟
ـ فى المحل .
ـ آه !
قالها آلان دون تحمس كبير .
وفى نفس الوقت شهقت ايلين نصف شهقة ، لـكنها لم تقل شـــيئا . فان مارى راحت تكرر للمرة الثمانين الاوامر والنواهى التى يتعين على الاثنين اتباعها فى فترة غيابنا عن البيت .
وبينما كنت منهمكا فى عقد ربطـــــة عنقى دخلت ايلين ووقفت مستندة الى الباب قائلة :
ـ بابا . هل من الغش ان ينقل الانسان شيئا من كتاب ؟
ـ فسرى كلامك .
ـ لوكنت اكتب موضوعا ونقلت من كتاب بعض ما فيه ـ فما رايك فى هـــذا ؟
ـ لو وضعت اقواســـا حول المـــادة المنقولة وملاحظة فى ذيل

الصفحة تبين من هو المؤلف ، لكان فى هذا ارتقاء بما تكتبين وسندا له . وفى ظنى ان نصف ما يكتب فى امريكا هو مقتبسات اذا لم يكن مختارات ادبية . والآن هل اعجبتك ربطة عنقى ؟

ـ لنفرض انك لم تضع هذه الاقواس ...

ـ اذن تكون المسألة سرقة مثل اى نوع آخر من السرقات . لا اظن انك فعلت هذا ؟

ـ لا .

ـ اذن فما هى مشكلتك ؟

ـ هل يمكن أن يزجوا بك فى السجن ؟

ـ ربما ، اذا اخذت نقودا عن الكتابة . لا تفعلى هذا يابنتى. والآن مارايك فى الربطة ؟

ـ اظن ان مظهرك لا يطاق !

ـ قولى لأخيك اننى جئت له بقناع الفار ميكى ماوس ، قبحه الله!

كانت مارى بعد انتهائها جميلة ورائعة . وقد تأبطت ذراعى مزهوة ونحن نسير فى الشارع تحت الأضواء بخطا ثابتة حتى كنا كفرسى سباق يتقدمان الى الحاجز استعدادا للشوط الكبير.

قلت لمارى :

ـ سوف نخرج كثيرا ياحبيبتى .

ـ متى ؟

ـ عندما نصبح من الأغنياء .

ـ ومتى يكون هذا ؟

ـ قريبا . وساعلمك كيف تلبسين الأحذية .

ـ وهل تشعل سيجارك بأوراق بنكنوت فئة ١٠ دولارات ؟ ..

ـ فئة عشرين .

ـ كم أحبك .

ـ عيب ياسيدتى . لايصح أن تقولى هذا . انك تخجليننى .!

وكانت مارجى فى انتظارنا فى المطعم ، وقد بدت مضيفة حتى أطراف بنانها . وقدمت الينا صديقا لها من نيويورك يدعى مستر هارتونج ، وكان صورة لأبناء المدن والعواصم بأناقته المفرطة ، وزاد عليها تعقيبه على كل شىء بضحكة يعرب بها عن تقديره لما يسمع ، حتى اننى لما قلت له : « ارجو أن تعرف ان صديقتك ساحرة » ـ اطلق أولى ضحكاته .

وقالت مارجى :

ـ اننى طلبت تخصيص مائدة لكم بجوار النافذة ، هى التى هناك.
ـ كما انك طلبت وضع زهور خاصة يا مارجى .
ـ مارى . لابد لى أن أفعل اى شىء ردا لطيبتك ومعروفك.
وكانت المائدة جميلة حقا ، وادواتها بيضاء كالفضة وان لم تكن فضة . وقالت مارجى :
ـ أنا المضيفة ، ومعنى هذا اننى الرئيسة . وقد أمرت بتقديم كئوس « المارتينى » أردتم أم لا .
فضحك مستر هارتوج .
وبعد أن شربنا الكأس الأولى قالت مارجى :
ـ سيشرب كل منا كأسين . ان الطعام هنا ممتاز .
ولما قلت لهم اننى فكرت مرة فى فتح « بار » حيث يستطيع الانسان أن يشرب الكأس الثانية دون حرج وحيث أستطيع تكوين ثروة ـ ضحك مستر هارتوج أيضا .
وبتقديم الكأس الثانية بدأ مستر هارتوج يتكلم ، وكان صوته خافتا رخيما متموجا كصوت مغن أو ممثل أو مندوب مبيعات لصنف لايريده الناس ، فقال :
ـ أخبرتنى مسز يونج هانت انك تعمل هنا . هذه فى الحقيقة بلدة جميلة بخيرها .
وكنت على وشك أن أحدد له نوع عملى بالضبط عندما تلقفت مارجى الكرة قائلة :
ـ ان مستر هاولى هو القوة القادمة فى هذه الولاية .
ـ كذا ؟ ماهو تخصصك يامستر هاولى ؟
فتولت مارجى البيان قائلة :
ـ كل شىء . كل شىء تماما ، لكن ليس بصورة معروفة للجميع.
رأيت فى عينيها بريق الشراب ، ولما نظرت الى عينى مارى رأيتهما مسطحتين ، فأدركت انهما تناولتا كأسا قبل حضورى ، أو هى مارجى على الأقل .
قلت ردا على كلمات مارجى :
ـ ان هذا يوفر على انكار ما قالت .
فعاد مستر هارتوج الى ضحكته ، قائلا :
ـ ان لك زوجة رائعة . وهذا نصف المعركة .
ـ بل هو المعركة كلها .
ـ أيشان ! ستجعله يظن اننا نتقاتل !

ـ آه . هذه هي الحقيقة .

وتجرعت نصف الكأس . فشعرت بالحرارة تتصاعد حتى أذني. وسمعت صوتي يواصل الكلام ، وجعلت أنصت الى نفسي من خارج نفسي وأنا أقول :

ـ ان مسز مارجي هي ساحرة الشرق .

ـ آه ياعزيزي. انها كانت شريرة. وأنا لا أحب أن أكون شريرة.

وبدا لي أنني أرى من خلال زجاج النافذة الملون الذي يعكس الصور متطاولة داني تيلور يسير على الرصيف . فرأيتني اثب واجري خلفه ، ولكنه اختفى عن نظري في حديقة مجاورة ، وسمعتني أنادي في اثره : داني ! داني ! رد الى المبلغ ! « لاتأخذه يادانى ! انه مسمم ! انني سممته ! » ...

وسمعت ضحكة . وكان الضحاك مستر هارتوج . فمسحت الدموع من عيني بفوطتي وقلت أفسر لهم :

ـ كان يجب أن أشرب الكأس، لا أغسل عيني بها . انها تحرقني.

فقالت مارى :

ـ ان عينيك حمراوان تماما .

ولم أستطع ان أعود الى رفاق الوليمة ، ولكنني سمعت نفسي اتكلم وأحكي قصصا ، وسمعت مارى تضحك ، واذن فلابد انني كنت ظريفا فكها مثيرا للضحك والطرب ، ولكنني لم أستطع قط ان أعود الى رفاق الوليمة . وأظن ان مارجي عرفت هذا ، فقد ظلت تنظر الى وفي عينيها سؤال خفي ، لعنها الله . انها ساحرة فعلا .

ولا أعرف ما الذي أكلناه . وأتذكر انه قدم الينا نبيذ أبيض ، واذن فلابد انه سمك . وجيء لنا بالبراندى . واذن فلابد أنني شربت قهوة ... ثم انتهت الوليمة .

وفي خروجنا سبقتنا مارى ومستر هارتوج ، فقالت لي مارجي :

ـ الى أين ذهبت عنا ؟

ـ لا أعرف قصدك .

ـ انك ذهبت بعيدا . كنت معنا بجزء فقط منك .

ـ اغربي عني يا ساحرة !

ـ كما تشاء ياغر .

وفي طريقنا الى البيت رحت افتش ظلال الحدائق ، وتعلقت مارى بذراعي وكانت خطواتها مترنحة ، وقالت :

ـ يالها من مناسبة لطيفة ! اننى لم أعرف الطف منها .
ـ كانت لطيفة فعلا .
ـ ان مارجى مضيفة كاملة .
ـ هذا شيء مؤكد .
ـ وانت يا ايشان . كنت أعرف انك ظريف أحيـــانا ، لـكنك جعلتنا نضحك طول الوقت . وقال مستر هارتوج انه ضعف من كثرة الضحك .

وفى مدخل بيتنا احتضنت مارى بقوة حتى تأوهت وقالت :
ـ تماسك ! سوف توقظ الأولاد !

كان فى نيتي ان أنتظر حتى تنام مارى ثم اتسلل خارجا لـكى اذهب الى كوخ دانى وابحث عنه ، حتى ولو ارسلت البوليس فى اثره . لـكننى راجعت نفسى . لقـــد ذهب دانى . وتمددت فى الظلام وجعلت اراقب البقع الحمراء وهى تسبح أمام عينى الى غير ما نهاية .

الفصل العاشر

ان قاعدة تمبلتون الجوية لا تبعد اكثر من حوالى اربعين ميلا من بلدتنا نيوبايتون ، وهو ما يوازى طيران نحو خمس دقائق بالطائرات النفاثة . ان اسراب هذه البعوضات الفتاكة تسمعنا هديرها بانتظام . وليته كان يوسعنى ان اعجب بها بل احبها على طريقة ابنى الآن . ولو كان لها اكثر من غرض واحد فربما منحتها اعجابى وحبى ، ولكن غرضها الأوحد هو القتل والتدمير، وهذا ما شبعت منه الى حد التخمة . انها تخترق حاجز الصوت بهدير قاصف يخيل الى معه كأن الجحيم تفجرت . وعندما تمر بنا ليلا فانها تتخلل احلامى فاستيقظ محزونا مغموما كأن روحى ذاتها قد تقدحت وتصدعت .

وفى بكرة هذا الصباح انطلق سرب منها هادرا مجلجلا حتى استيقظت من نومى منتفضا واعشبا . ولبثت ممددا فى الفراش وعرق الخوف يبللنى وانا انصت الى نذر الشر والهلاك هذه وهى تعول متباعدة فى الفضاء . ولم اتمالك ان تصورت كيف ان هذه الرجفة التى عرتنى انما تسرى فى اعماق كل انسان فى هذه الدنيا. وليست هى نفاثات الهلاك فى ذاتها ، بل هو غرضها التدميرى الذريع.

ان مشكلة ما اذا تفاقمت واستفحلت ، فان ابناء البشر يحتمون منها بعدم التفكير فيها . لكنها تغوص فى الأعماق وتمتزج بكثير من غيرها من المشاكل والمسائل القائمة فعلا ، وما يخرج من هذا ويبرز الى السطح هو القلق ، والسخط ، والتأثم ، والانبعاث الى عمل شىء — اى شىء — قبل فوات الأوان . ويخيل الى ان كل انسان تقريبا اراه مضطرب الأعصاب متوتر بالقلق مصطنع للمرح والصخب كأولئك الذين يلتمسون السكر عشية رأس السنة . وما اجرى علماء التحليل النفسى الذين يتصدون بالتحليل الى العقد النفسية الفردية أن يتصدوا بالتحليل والتماس العلاج لمشكلات العصر التى تنذر شرورها النووية بالقضاء على البشرية كلها.

وما لبث سرب آخر من النفاثات أن تفجر خلال حاجز الصوت.

لقد مضى علينا ما يقرب من نصف مليون عام حتى اصبحت النار معهودة لدينا ، ثم أقل من خمسة عشر عاما للتفكير فى هذه القوة النفاثة التى هى أشد من النار ضراوة وعنفوانا . فهل تتهيأ لنا الفرصة لاخضاع هذه القوة والافادة منها . واذا كانت قوانين التفكير والمنطق هى قوانين الأشياء ، فهل يمكن أن يحدث الانشطار النووى فى النفس البشرية ؟ وهل هذا ما يعرض لى الآن ، ولنا جميعا ؟ ..

انني اتذكر قصة حكتها لى عمتى ديبورا منذ زمن طويل ، مؤداها انه حدث فى القرن الماضى وهى طفلة صغيرة اشيع ان نهاية العالم سوف تكون فى موعد معين . فقام أبواها بتوزيع كل مايمتلكون فيما عدا ملاءات السرير التى التفوا بها ، وفى الموعد المتنبأ به انطلقوا الى التلال لمواجهة نهاية العالم . ووقف مئات الناس وهم ملتفون بهذه الأغطية يصلون ويرتلون الأناشيد . وعندما حل الليل بهم زادوا صلاة وترتيلا ، فلما اقترب الموعد مرق نجم فى الفضاء فرفع كل انسان عقيرته بالصراخ هلعا . ثم حلت اللحظة المنتظرة ، فاحتبست الأنفاس فى صدور الرجال والنساء والأطفال وهم مدثرون بأغطيتهم البيضاء . لقد جاءت اللحظة ثم انقضت ، واذا هم قد خدعوا فى الفناء المزعوم . وما أن يزغ الفجر حتى عادوا يهبطون التلال وما منهم الا من ذهب يحاول استرداد ما وزعوه من ملابس ومقتنيات شملت كل ما كان لهم من حطام الدنيا!

فى ظنى اننى لم استرجع هذه القصة الا بسبب النفاثات ــ تلك التى هى وليدة جهود هائلة وارصدة جبارة من الوقت والمال لتكديس مخزون احتياطى من اسلحة الموت والدمار . فهل ترانا نشعر بأننا قد خدعنا فى الموت لو اننا نبذنا اسلحة الهلاك ولم نستخدمها قط ؟ ان لدينا القدرة على اطلاق الصواريخ فى الفضاء ، ولكننا بغير قدرة على شفاء نوازع الغضب والحقد وبواعث السخط والتذمر والأحزان .

سمعت مارى تستيقظ قائلة :

ــ ايثان . انك تكلم نفسك . ولست أعرف مايدور فى رأسك ولكنه يكاد يسمع . كف عن التفكير يا ايثان .

هكذا نهضت وحلقت ونزلت للافطار .

وعندما ذهبت لفتح باب المحل المخلفى رأيت حظروف المبنك

البنى مدفونا تحت الباب . وكان مغلقا. فاخرجت مطواتى وشققته نظرا لسمكه .

وجدت فيه ثلاث ورقات من كراسة مدرسية رخيصة مكتوبة بقلم رصاص . كانت وصية . « لما كنت بكامل قواى العقلية...» ـ « فاننى أقرر ... » ـ « واننى أقبل أن أسدد الدين برهن »

وكانت الورقتان موقعتين بامضاء دانى تيلور . أما الورقة الثالثة فقد تضمنت هذه الكلمات : « عزيزى ايشان ـ هذا هو ماتريده».

شعرت بتصلب فى بشرة وجهى . ولم البث أن اغلقت باب المحل الخلفى ببطء كما يغلق الانسان باب مدفن تحت الأرض . ان الورقتين طويتهما بعناية ووضعتهما فى محفظتى . أما الورقة الثالثة فقد فركتها وألقيت بها فى «التواليت» وجذبت سلسلة«السيفون» حتى غابت .

لم ألق هذا الصباح خطبتى المعتادة للمعلبات . وانما أخرجت خرطوما وغسلت الرصيف تماما . وبعد هذا نظفت المحل كله ، حتى زواياه التى لم أمسها منذ مدة .

والفيتنى أغنى مرددا :

وبعد شتاء أحزاننا الذى أكفهر واستطال
جاء الآن صيفنا المشرق بعراض الآمال

الجزء الثانى

الفصل الحادى عشر

نامت بلدة « بايتهـــاون » طويلا حتى تخلفت عن غيرها من البلدان والمواطن . لقـــد ازدهرت قديما بصيد الحيتان وتزويد « العالم الغربى » بزيت الحيتان للاضاءة . حتى معاهد اكسفورد وكمبريدج كانت تستمد ضوء مصابيحها من زيت هذه البلدة المتقدمة على الشاطىء الأمريكى . ولـكن تفجر البترول فى بنسلفانيا وغيرها من المناطق ادى الى الاستغاضة بالـكيروسين عن زيت الحيتان ، وهكذا انكمش هذا المورد الذى قامت عليه حياة « بايتلون » حينا من الزمن ، وزحف العمران على المناطق الجديدة منبثقا من نيويورك الى ما بعدها ، وبقيت البلدة قابعة فى اغلال التخلف والجمود .

حتى الرجال والقادة الذين تولوا مقاليد امورها سيـــاســـيا واقتصاديا وأدبيا نامو على هذه الحقيقة واغمضـــوا عيونهم عن التغيير اطمئنانا الى توطد مراكزهم وكفالة شئونهم . ظنوا جميعا ـ العمدة ، والمجلس ، والقضاة ، والشرطة ـ انهم فى مناصبهم مخلدون . كان العمدة يبيع للادارة حاجتها من ادوات الانشـــاء والتعمير ، والقضاة يتلاعبون فى المخالفات تحيزا لبعض الناس وهم يظنون لطول مارسوا عملياتهم انها غير مجافية للقانون .

ثم جاء الصيف ليوقظ الجميع من سباتهم ويفتح عيونهم فجاة على التغيرات الجديدة التى توشك ان تقض المضاجع وتقوض القديم من اساسه .

وفى أصيل هذا اليوم من ايام شهر يونيو الحارة وقف ايثان فى محل البقالة يمارس عمله المعتاد حينما دخل عليه جو مورفى صراف البنك وطلب زجاجة شراب مرطب كما هى عادته ، واضاف قائلا:

ـ الواجب ان تضع فى المحل جهاز تقديم المياه الغازية .

فرد ايثان قائلا :

ـ ويكون لى دولعان اضافيان ، أو انقسم الى بائعين . هـــل

نسيت ياجارى العزيز اننى لا أمتلك هذا المحل ؟ ..
ـ يجب أن يكون لك محل . فالناس هنا يعرفونك ، ويحبونك..
ـ ومع هذا فقد كان لى هذا ، ثم أفلست .
ـ كان ذلك لأسباب فنية . وقتها لم تتدرب على شراء سلع طبقا للأصـــول التجارية .
ـ ربما كنت لم أزل كذلك .
ـ هل تعرف يا ايشـــان عيبك ؟ انك مازلت فى حالة « افلاس عقلى » ... تخلص من هـــذه الحالة يا ايشان . تخلص منهـــا ياسليل اسرة هاولى .
ـ أشكرك .
ـ انت تعرف محبتى لك . متى سيذهب مارولو الى ايطاليا ؟
ـ لم يخبرنى . قل لى ياجو : الى اى درجـــة يعتبر مارولو من الأغنياء ؟ لـكن لا . لا تقل . انا أعرف انه مفروض فيـــك عدم افشاء أسرار العملاء .
ـ بامكانى مخالفة بعض اللوائح من اجل صـــديق يا ايشان . يمكننى ان اقول عموما انه يضع أصابعه فى اشياء كثيرة : عقـــار وأرض فضـــاء هناك ، واكشـــاك مبنية على الشاطىء ، ورهون عقـــارية مختلفة .
ـ وكيف عرفت هـــذا ؟ ـ
ـ من خزانة الودائع . انه استأجر عندنا واحدة منها كبيرة . عنده مفتاح لها وعندى الثانى . ولابأس أن أقول اننى تحسست بين الحين والحين . ولـكنك تلاحظ اننى لم أذكر رصيده المالى.
ـ وانا لم أطلب منك هـــذا .
ـ الحقيقة يا ايشان اننى فكرت كثيرا فى أمرك . ان ما ينقصك هو التصميم والجراة . ان الفشل هو حالة عقلية . ومتى صممت وقفزت من حفرة التردد واليأس ، فســـوف تجد ان النجاح هو حالة عقلية أيضا .
ـ ليتنى أعرف ما الذى تريده منى ان أحاول فعله .
ـ ليتنى أعرف مثلك ، اذن لفعلت هـــذا لنفسى . ان عرلف البنك لا يتطاول الى مركز رئيس بنك . أما من يمتلك حفنة من الســـندات فهذا فى مقدوره . أظن اننى أحاول أن أقول لك : اخطف اى شىء يمر قربك . فقد لايمر بعد ذلك .
ـ انت فيلسوف ياجو . فيلسوف مالى !

ـ عيب الناس انهم يعيشون اغلب حياتهم بين الماضى والحاضر ولا يكرسون مثل ذلك للتفكير فى المستقبل . تحضرنى دائما عبارة قالها كاتبنا القديم ساتشل بيج : « لا تنظر الى الوراء . فربما كان هناك شىء يلاحقك حتى يسبقك » . لابد لى الآن من العودة الى البنك . ان مستر بيكر ينوى السفر الى نيويورك غدا لبضعة أيام . انه مشغول جدا هذه الأيام .

ـ باى شىء ؟

ـ وكيف عرف ؟ اننى اتلقى البريد الوارد واسلمه . انه تلقى فى الفترة الأخيرة مراسلات كثيرة من « الباتى » .

ـ فى السياسة ؟ ..

ـ أنا أوزع البريد الداخلى للبنك فقط ، ولا اقراه . هل العمل عندك قليل هكذا دائما ؟

ـ حوالى الساعة الرابعة فقط . وسوف تشتد الحركة بعد ربع ساعة .

ـ سأراك فيما بعد . لا تنس نصائحى .

وعادت حركة الشراء والبيع الى نشاطها على الأثر. وبعد انتهاء فترة العمل المسائية جمع فى كيس كبير لوازم البيت ثم خلع مريلته ولبس سترته وقبعته ، وجلس برهة على المنصة وسرح بصره فى المطبات المتراصة فوق الأرفف قائلا : لا خطب اليوم . سأتذكر فقط كلمات ساتشيل بيج . لابد ان اتعلم الآن الا انظر الى الوراء !

واخرج من محفظته الورقتين المطويتين وجعل لهما مظروفا صغيرا من الورق المشمع ، ثم دس المظروف فى ركن خلف محرك الثلاجة واغلق الباب المعدنى كما كان .

وبحث تحت مسجلة النقد حتى وجد دليل التليفونات تعلوه الأتربة فوق رف . فبحث فيه عن رقم ادارة الهجرة ، ولما وعاه فى ذاكرته قال مخاطبا المطبات دون أن ينظر اليها : اذا كان كل شىء قانونيا ومستقيما ، فلن يضار أحد .

وخرج ايثان الى باب الحارة واغلقه . وحمل كيس اللوازم المنزلية وعبر الشارع الى مطعم فورماستر الذى كان مزدحما فى هذه الفترة بالشاربين ، ولكن كشك التليفون كان خاليا . فاغلق بابه الزجاجى ووضع الكيس على الأرض ونثر النقود الصغيرة على الرف ، ثم ادخل القطعة المطلوبة فى الفتحة وادار رقم صفر. وبعد ان رد عليه العامل قال له :

ـ اريد مكالمة الى نيويورك .
ـ حسنا . ادر الرقم من فضلك .
وهذا ما فعله ايثان .

***

عاد ايثـــان الى بيته حاملا كيس اللوازم المنزلية . واسترعى نظره وهو يجتاز الحديقة الصغيرة طول الحشائش ، فقال لمارى بعد ان قبلها :

ـ الحشائش طويلة ياحبيبتى . الا ترين انه يمكن أن يقوم الآن بتقليمها ؟

ـ نحن الآن فى فترة الامتحانات ، ومشغولية آخر السنة .

ـ ما هذه الأصوات المزعجة فى الغرفة الثانية ؟

ـ هو الآن يتمرن على الالقاء . انه سيشترك فى الحفل المدرسى لمناسبة آخر السنة .

ـ معنى هذا اننى سأضطر الى تقليم الحشائش بنفسى .

ـ انا آسفة ياعزيزى . لـكنك تعرف الظروف . يجب أن تكون لنا جزازة آلية للأعشاب . ان اسرة جونسون عندها آلة مثل هذه يمكن ركوبها .

ـ بل يجب أن يكون لنا بستانى وصبى بستانى . كان جـــدى عنده هذا . وبامكان الآن أن يركب الجزازة اذا أردت ياعزيزتى .

ـ لا تتحامل على الولد . انه لم يتجاوز الرابعـــة عشرة . هم جميعا كذلك ، فى هذه السن .

ـ ان الصـــوت النشاز الصادر من الغرفة يثير جنونى . أحب ان اعرف ماذا يفعل ؟ ..

ـ الظاهر انك متضايق يا ايثان . ترفق بابنك !

كان الآن يصيح بكلمات مبهمة من خلال قصبة رنانة وضعها على لسانه . فقال له أبوه :

ـ ماذا تفعل بالله ؟ ..

فلفظ الآن القصبة فى راحة يده واجاب قائلا :

ـ هى من علبة حبوب ميكى ماوس . هذه طريقة الـكلام البطنى. لابد لى أن اتدرب يا بابا .

فجلس ايثان قائلا :

ـ لحظة معى . ما هى خطتك فى الحياة ؟

ـ هيهـــه ؟ ..

ـ يعني المستقبل . الم يقولوا لك في المدرسة ؟ ان المستقبل بين يديك .

وفي هذه اللحظة دلفت ايلين الى الغرفة وتكومت مثل قطة فوق الأريكة وهي تضحك ضحكة لاذعة ، وقالت :

ـ انه يريد أن يظهر في التليفزيون .

ـ هناك ولد سنه ١٣ سنة فقط كسب مائة وثلاثين الف دولار في برنامج للفوازير .

فقالت ايلين : تبين ان العملية فيها تلاعب .

ـ على كل حال لايزال عنده ١٣٠ الف دولار .

فقال ايثان : الجوانب الأخلاقيـــة لا تضايقك ؟

ـ مع ذلك فان المبلغ كبير .

ـ الا ترى ان هذا مخالف للأمانة ؟ ..

ـ كل واحد يفعل هذا .

ـ أرى ان اخلاقك تتفكك . اعتدل في جلوسك . وهل نسيت كلمة « سيدى » من آداب المحادثة ؟ ..

بدا الانزعاج على الفتى ، ثم اعتـدل في جلسته والاستياء باد عليه ، واجاب :

ـ لا ياســـيدى .

ـ كيف حالك في المدرســـة ؟ ..

ـ على ما يرام كما اظن .

ـ كنت تكتب موضـــوعا عن كيف تحب امريكا . هل تصميمك على افسادها اوقف هـــذا المشروع ؟ ..

ـ اننى اتممت الموضـــوع .

ـ حسنا . اود أن اراه .

ـ اننى ارســـلته .

ـ لابد ان عندك نسخة منه .

ـ لا ياســـيدى .

ـ افرض انه ضـــاع ؟ ..

ـ لم افكر في هذا يا بابا. انني اتمنى ان اذهب الى المعسكرات الصـــيفية مثل كل الأولاد .

ـ ليس هذا في طاقتنا . ليس كل الأولاد يذهبون ـ قليل منهم فقط .

ـ يا ليت كان عندنا بعض المـــال .

فقال ايشان وهو يتفرس فى وجه ولده :
ـ سأجعل هـــذا شيئا ممكنا .
ـ ماذا ياسيـــدى ؟ ..
ـ بامكانى أن أدبر لك عملا فى المحل هـــذا الصيف .
ـ ما هو هـــذا العمل ؟ ..
ـ ســوف تحمل وتنظف الرفوف وتكنس ، وربما اذا أفلحت يمكن أن تقدم الطلبات للزبائن .
ـ أريد أن أذهب الى المعسكرات الصيـــفية .
ـ وتريد أيضا أن تكسب مائة الف دولار .
ـ ربما أكسب موضوع المسابقة . على الأقل فيهـــا رحلة الى واشنطن . وهى نوع من الاجازة والراحة بعد الســنة بطولها فى المدرســـة .
ـ الان ! هناك قواعد ثابتـــة للأخلاق ، والأدب ، والأمانة ، والاستقامة ، وحتى النشاط . حان الوقت لـكى أعلمك أصولها. ســـوف تشتغل .
فتطلع اليه الفتى قائلا :
ـ لا يمكنك .
ـ عفـــوا ؟ ..
ـ فهناك قوانين تشغيل الصغار . لايمكننى حتى الحصول على ترخيص عمل قبل سن السادسة عشرة . هل تريد منى أن أخالف القـــانون ؟ ...
فقال ايشان وقد تجلى غضـــبه :
ـ وهل تظن ان جميـــع الأولاد والبنـــات الذين يســـاعدون والديهم نصفهم عبيد ونصفهم مجرمون ؟
لم يستطع الان الا أن يدير نظره ، وقال :
ـ لم أقصد هذا ياسيدى .
ـ أنا عارف . ولا تكرر هذا . انك جرحت كرامة عشرين جيلا من سلائل أسرة هاولى . كانوا رجالا كراما شرفاء . وربما تكون جديرا بأن تـكون واحدا منهم فى يوم من الأيام .
ـ نعم ياسيدى . هل يمكن أن أذهب الى غرفتى ياسيدى ؟
ـ يمكن .
وراح الان يصعد السلالم بخطا وانية .
وعندما اختفى اعتدلت ايلين فى جلستها فجاة وقالت وقد جذبت

« الجونلة » فوق ركبتيها مثل فتاة مكتملة :
ـ كنت اقرأ خطب هنرى كلاى . انه كاتب ممتاز .
ـ نعم . هو كذلك .
ـ هل تتذكر خطبه ؟
ـ ليس تماما . مضى وقت طويل منذ ان قراتها .
ـ هو كاتب ممتاز .
ـ يبدو لى انها ليست موضوعا لقراءة مدرسية للبنات .
ـ هو كاتب ممتاز .
نهض ايثان من مكانه متثاقلا ، خصوصا بعد جهد النهارالطويل فى العمل . وفى المطبخ وجد مارى محمرة العينين غاضبة ، وقد قالت له :
ـ سمعتك . اننى استغرب مافعلت . هو صبى صغير فقط.
ـ هذا هو الوقت للبداية ياعزيزتى .
ـ لاتدللنى بالألفاظ انا لا أحتمل المستبد .
ـ مستبد ؟ يا الهى !
ـ انه ولد صغير . ولكنك سحقته كحشرة !
ـ لا ياعزيزتى . اننى فتحت عينيه على نظرة سريعة للدنيا . انه كان يبنى دنيا زائفة .
ـ من أنت حتى تعرف ما هى الدنيا ؟
مر ايثان بجانبها واتجه الى البيت الخلفى . فقالت :
ـ الى اين تذهب ؟ ..
ـ لجز الحشائش .
ـ كنت اظن انك متعب .
ـ انا كذلك ـ أو كنت .
ثم تطلع اليها من فوق منكبه وقال وهو يخرج الى الحديقة :
ـ الانسان مسكين فى وحدته !
وسمعت مارى صليل شفرات الجزازة وهى تقلم الحشائش ثم جاءها صوت ايثان مناديا :
ـ مارى . مارى . أحبك يا مارى !
واستمرت عملية الجز بلا هوادة .

الفصل الثانى عشر

كانت مارجى « الصيادة الشابة » امراة جذابة ، ذكية ، بل انها بلغت من الذكاء حدا تعرف معه متى وكيف تخفى ذكاءها .

لقد اخفقت فى زواجها الأول وطلقت ، وأخفقت فى زواجهـــا الثانى ومات زوجها .

وكانت تنفق اكثر دخلها الذى تناله من زوجها الأول نفقة تطوعية على زينتها وملابسها لاغراء من توقعهم فى حبائلها ، وان كانت فى علاقاتها بهم تلتزم التكتم والسرية . كان منهم دانى تيلور، والفيو مارولو ، ورئيس نقطة البوليس ستونى سميث ـ ولـكن هـــذه العلاقات لم تدم طويلا .

وتحول هدفها الآن الى ايثان هاولى ، الذى بدا اهتمامها به عرضيا ومن قبيل سد الفراغ ، ثم استحال الى رغبة فى اختبار قدرتها وسلطانها . لقد بدا لها من المناوشات الأولى مستعصما. فهو اذن رجل خارق الارادة ، واذا غلبتـــه لـكانت اقوى ارادة وانفذ سلطانا .

ولعل مارجى كانت الوحيدة التى تفطنت الى تلك التغييرات العميقة التى بدات تعترى ايثان ، وربما روعها ذلك اذ عـــدته من تأثيرها وصنعها ، بيد انها عقدت العزم على متابعة التجربة الى النهاية .

وهكذا نراها اليوم وقد تسلحت بأتم زينة وأبهى ملابس ، كما يتسلح القصاب بأحد مداه وامضاها ، ثم قصدت من فورها الى محل البقالة لاتلوى على شىء فى طريقها الحافل بالمعجبين والمفتونين.

كان ايثان منهمكا فى الحديث مع رجل غريب فى منتصف العمر توحى هيأته بانه من الرجال الرسميين . فقالت مارجى :

ـ انت مشغول يا ايثان . سأعود فى وقت آخر .

وانتقلت من فورها الى البنك المجاور ، فتلقاها جو مورفى مرحبا ، ولبى رغبتها فى صرف شيك بعشرين دولارا وهو يجاذبها اطراف الحديث لما كان بينهما من علاقة ودية لم تتجاوز حد الدعوة الى الطعام بين وقت وآخر .

وفيما هى تتأهب للانصراف لمحت الرجل الذى كان يتكلم مع ايثان يمر عن كثب منهـا ويقدم بطاقته ، وبعد برهة ادخل الى مكتب مستر بيكر وأغلق الباب عليهما . فقالت مارجى للصراف :

ـ من هـــــذا ؟ ..

ـ لم أره قبل الآن . يبدو انه من رجال التفتيش فى البنوك . فى هذه المناسبات أحمد الله على أمانتى وعلى قدرتى فى الجمع والطرح.

وعادت مارجى على الأثر الى محل البقالة ، ولما حياها ايثان سالته :

ـ من كان هذا الغريب الأنيق ؟

ـ ألا تحملين كرتك البلورية ؟ ..

ـ هل هو من رجال المخابرات ؟ ..

ـ أكثر . هل الناس كلهم يخافون من الشرطة يا مارجى ؟ اننى أخاف منهم ، رغم اننى لم أفعل أى شىء ..

ـ هل كان ذلك الرجل الأنيق من رجال الشرطة ؟ ..

ـ ليس تماما . قال انه من رجال الحكومة الاتحادية .

ـ وما الذى كان يريده يا ايثان ؟ ..

ـ كل ما أعرفه هو ما ســـألنى عنه ، ولـكننى لا أعرف ما الذى يريده .

ـ وماذا قلت له ؟

ـ من أى وقت أعرف رئيسى . ومن يعرفه غيرى ؟ ومتى جاء الى « نيو بايتاون » ؟ ..

ـ وماذا قلت له ؟

ـ قلت اننى عندما ذهبت الى الخدمة لمحاربة العدو ، لم أعرفه. وعندما عدت كان المحل قد آل اليه ، وأعطانى عملا .

ـ وما الذى تظن انه يسعى اليه ؟

ـ الله يعلم . وان كنت أصارحك يا مارجى اننى شـــعرت بالقلق . أنا محتاج الى هذا العمل ، واذا حدث أى شىء لمـارولو فسوف أكون فى الشارع .

ـ هل نسيت انك سوف تغتنى ؟ ..

ـ من الصعب ان اتذكر هذا وأنا لست كذلك .

فقالت معابثة :

ـ تأكد ان الطالع الذى قرأته لك سوف يتحقق .

ـ أشعر بهذا .

ـ ألا تظن انك مدين لى بشىء اذن ؟

ـ صحيح ؟ ..
ـ متى ستدفع الدين ؟
فتح ايثان الثلاجة واخرج زجاجتى كولا قدم اليها احـــداهما واخذ الثانية . وقال لها :
ـ ما الذى تريدينه منى ؟ ..
ـ لم ار فى حياتى رجـــلا مثلك . ربما كنت اريد أن أعرف كيف يكون الحب ، أو الـكراهية ! ..
ـ أنت ساحرة . لـماذا لا تثيرين عاصـــفة ؟ ..
ـ بامكانى أن اثير عاصفة صغيرة فى معظم الرجال بحاجبى فقط.
ـ أنت سيدة جميلة ولـكنك أيضا ذكية . ماذا تريدين منى ؟
ـ قرأت لك حظك وسوف يتحقق .
ـ وتريدين امتصاص نصيبك ؟ ..
ـ نعم .
فرفع عينيه وراح يقول :
ـ بامكانى الآن أن أصدقك . مارى ياحبيبة القلب :
نظرة منك الى زوجك ، وحبيبك ، وصديقك ! احمينى من الشر فى داخلى ومن الاذى من خارجى ! استحلفك بامارى ان تساعدينى ، لأننى خلقت من ضعف ، وقد اضعف وانهار !
ـ أنت مهرج يا ايثان .
ـ أعرف هـــذا .
ـ اننى اصبحت اخافك الآن ، ولم اكن هكذا من قبل .
ـ لا أعرف لـــماذا .
وفجأة غيرت لهجتها قائلة :
ـ مارولو .
ـ ماذا عنه ؟
ـ انا اســـألك .
ـ عن اذنك لحظة . عشر بيضات ، ومربع زبدة ؟ حاضر وبن ايضا ؟
ـ نعم .علبة . ومارايك فى «بولبيف هومدون» ؟
ـ لم أجربه ، لـــكنهم قالوا انه لذيذ ... تحت أمرك يامستر بيكر . ألم تأخذ مسز بيكر علبة من « بولبيف هومدون » أخيرا
فرد مستر بيكر الذى كان قد جاء فقطع عليهما الحديث
ـ لا اعرف يا ايثـــان . أنا آكل ما يقدم الى . مستر يونج

هانت ـ انت تريدين حلاوة كل يوم .
ـ هذا ظرف منك ياسيدى . مستر هاولى ، ضع مشترياتى فى كيس ، وساعود لاخذها وانى عائدة الى البيت .
ـ حاضر ياسيدتى .
وقال مستر بيكر بعد خروجها :
ـ هـذه شـابة مدهشة .
ـ انها منسجمة مع ملوى .
ـ قل لى يا ايشان : هل جاء ذلك الرجل الحكومى الى هنا .
ـ نعم .
ـ وماذا يريد ؟
ـ لا اعرف . انه سالنى اسئلة عن مستر مارولو لم اعرف الرد عليها .
ـ ايشان : هل رايت دانى تيلور ؟
ـ لا . لم اره .
ـ هل تعرف اين هو ؟
ـ لا . لا اعرف .
ـ لابد ان اتصل به . الا تعرف اين يمكن ان يـكون ؟ ..
ـ اننى لم اره منذ شهر مايو . وكان ينوى ان يحاول العلاج من جديد . وقد اقترض منى بعض المـال .
ـ ماذا ؟
ـ اننى اقرضته مبلغا صغيرا .
ـ كم ؟
ـ عشـريـن ؟
ـ انا آسف يا ايشان . اننا اصدقاء قدماء . آسف . هل كان يمتلك نقودا اخرى ؟
ـ اظن هذا .
ـ اذا عرفت مكانه فارجو ان تخبرنى . هل اخذت هذا المبلغ من ملوى ؟
ـ نعم .
ـ وهل لم تمانع ؟
ـ انها لم تعرف ، ثقة منها بى .
ـ انت شخص حاذق .
ـ منك نتعلم ياسيـدى .

ـ وهل مارى بخير ؟
ـ بكل خير . ليتنى استطيع أن أصحبها فى اجازة قصيرة .
ـ كل شىء سيأتى فى وقته يا ايشان . اظن اننى سأذهب الى « ماين » فى عطلة عيد ٤ يوليو ، بعيدا عن الضوضاء التى لا احتملها .
ـ الم تكن فى رحلة الى « الباقى » ياسيدى ؟
ـ من أوحى اليك بهذا ؟ ..
ـ لا أعرف . سمعت فى مكان ما . وربما كانت مسز بيكر قد اخبرت مارى .
ـ لايمكن . انها لم تعرف . حاول أن تتذكر اين سمعت هذا .
ـ لايمكننى ياسيدى . وماذا يهم اذا لم يكن الخبر صحيحا ؟
ـ سأخبرك بينى وبينك لماذا أقلقنى ذلك . السبب هو انه حقيقى . أن حاكم الولاية استدعانى . انها مسألة خطيرة . من اين تتسرب اخبار كهذه ياترى ؟ ومع ذلك سأخبرك بشىء ، واذا تسرب عرفت المصدر .
ـ اذن فلا اريد أن أسمع .
ـ لاخيار لك الآن بعد أن عرفت حكاية « البانى » . ان الولاية تجرى تحقيقات فى شئون المقاطعة والبلدة .
ـ لماذا ؟
ـ اظن لأن « الرائحة » فاحت حتى وصلت الى « البانى » .
ـ هل لها علاقة بالسياسة ؟ ..
ـ ان كل ما يباشره الحاكم يمكن اعتباره من السياسة .
ـ مستر بيكر . لماذا لا تجرى التحقيقات علنا ؟
ـ سأقول لك سببه . ان الأخبار تسربت من الولاية ، وعندما بدأ المحققون كانت معظم السجلات قد اختفت .
ـ ان الانتخابات ستجرى فى السابع من يوليو . هل ستذاع الحكاية قبل ذلك ؟ ..
ـ لا أعرف . هذا موكول الى الولاية .
ـ هل تظن ان مارو لله ضلع فى هذا ؟ اننى لا احتمل فقدان عملى .
ـ لا اظن . ان الموظف الحكومى كان من رجال الحكومة الاتحادية . وزارة العدل .
ـ لا اظن انه من المستصوب أن تسافر فى هذه الظروف .
ـ لايهم . لن يحدث شىء قبل عطلة عيد ٤ يوليو . أريد الآن

اشحذ همتك وتبحث لي عن مكان داني تيلور .
ـ لماذا ؟ هل المسألة مهمة الى هذا الحد ؟
ـ نعم . ولايمكننى ان اذكر السبب فى الوقت الحالى . على كلٍ حال لو امكنك العثور عليه لاستغنيت عن هذا العمل .
ـ اذا كان الأمر كذلك فسوف أبذل غاية جهدى ياسيدى .
ـ هذا عهدى بك يا ايشان . واذا وجدته فاتصل بى ، نهارا او ليلا .

الفصل الثالث عشر

أقرر هنا ، اراحة لضميرى ، ان ما فعلته وماخططت لفعله كان شيئا غريبا عنى ، ولكنه كان ضرورة لابد منها . والواقع انه لم يكن لى أى ضلع فى المأساة الوشيكة التى ستقع فى السابع من يوليو . انها لم تكن من عملى أو تدبيرى ، لكن كان فى طاقتى أن أستبقها وأفيد منها .

ومن الناس من أوتى القدرة على استشفاف التغييرات الحادثة وتلقى اشاراتها الخفية . واظن ان مارى شعرت بأن هناك تغييرا قادما ، ولكنها أساءت تأويله . واظن ان مارجى « الصيادة انشابة » عرفت أيضا ، فهى ذكية كما هى ساحرة ، ولكن هذا أدعى الى القلق .

وكنت واثقا ان مستر بيكر سوف يذهب فى الاجازة بعد ظهر يوم الجمعة فى عطلة عيد ٤ يوليو أو يوم السبت لكى يتسع الوقت لوقوع ما سوف يقع وليكون بعيدا عند حدوث الصدمة . وطبعا لم يكن هذا ليهمنى كثيرا ، ولكنه أوجب على ان أقوم بعدة تحركات ضرورية يوم الخميس ، احتمالا لسفره فى تلك الليلة . ان عملية يوم السبت التى سأقوم بها كانت مرسومة بكل دقة وبأسلوب عملى تماما الى حد انه كان بوسعى أن امضى فى تنفيذها وانا نائم . ولو كان عندى اى خوف منها فلم يكن بأكثر مما يعرض للممثل وهو يوشك أن يخرج الى خشبة المسرح .

وفى يوم الاثنين ، ٢٧ يونيو ، جاء مارولو الى المحل بعد أن فتحت مباشرة . وقد راح يطوف بأرجاء المحل ويتفقد الأرفف والمنصة مسجلة النقد والثلاجة والمخزن بصورة غير معهودة كما لو كان يراها لأول مرة . ولما سألته ان كان سيقوم برحلة فى عطلة ٤ يوليو مثل غيره قال لى :

ـ ولماذا تسألنى هذا ؟

ـ لأنها رحلة يقوم بها كل قادر .

ـ والى أين يمكن أن اذهب ؟ ..

ـ الى كاتسكيلر مثلا ، أو الى مونتاوك ، حيث يمكنك صيد الأسماك .

وكانت هذه الفكرة كافية لكى يثنى ذراعيه متألما . فاقتربت منه ووضعت يدى على ذراعه برفق وقلت له :

ـ اسمع يا الفيو . لماذا لا تذهب الى نيويورك لاستشارة كبار الأطباء الأخصائيين فى الروماتزم . لابد من وجود دواء يوقف هذه الآلام .

ـ لا أعتقد فى هذا .

ـ عليك أن تجرب . لن تخسر شيئا . اننى مشفق عليك .

فنظر الى طويلا وهم أن يقول شيئا ، لكنه غير رأيه وقال :

ـ انت ولد طيب .

وهم أن يخرج ، ولكنه توقف فى المدخل وصاح قائلا :

ـ خذ سيارتى « البونتياك » .

ـ ماذا ؟

ـ اذهب بها فى رحلة يومى الأحد والاثنين .

ـ هذا شىء لا طاقة لى به .

ـ خذ أسرتك . اننى قلت للجراج أن يعطوك السيارة . والخزان مملوء بالبنزين .

ـ انتظر لحظة !

ـ اذهب الى جهنم . خذ أسرتك فى اجازة .

وطوح الى بلفافة كانت تحتوى على ثلاث ورقات من فئة عشرين دولارا .

ولم يظهر مارولو بقية الأسبوع .

والحق اننى لم أكن أتوقع حكاية السيارة « البونتياك » . ولم يسبق له أن أعار سيارته لأى انسان . فكانت هذه هى احدى الغرائب التى بدأت تحفل بها أيامى فى العهد الأخير .

وفى يوم الخميس ٣٠ يونيو استيقظت كعادتى عند بزوغ الفجر ، فكان أول ما فكرت فيه أن أتفرغ لأسرتى حتى لا يشغلنى أى طارىء عما سأكرس له نشاطى هذا اليوم . وهكذا بدأت بمارى وقلت لها :

ـ هل استيقظت بدرجة تكفى لكى تسمعى أخبارا عظيمة مبهجة ؟

ـ عرفتك تهزل دائما . ان كانت أخبارك من نوع « تبليط » الحديقة فان ...

ـ دعى عنك هذا الكلام الفارغ . ان مارولو أصدر الأوامر

بان ناخذ سيارته ونقوم برحلة سعيدة فى اجازة العيد .
ـ انك تمزح كعادتك .
ـ وهل يجوز أن أقول كذبة تحزنك ؟ ..
ـ لـكن لمـــاذا ؟ ..
ـ لا أعرف . ولـكننى اقسم لك بكل يمين مقدسـة ان «البونتياك» الفاخرة وملء خزانها بنزين نقى سـوف تكون رهن اشارة سموك !
ـ لـكن الى اين نذهب ؟ ..
ـ هذا يازوجتى النحلة الشغالة هـو ما سوف تقررينه اليوم وغدا ويوم السبت .
ـ لـكن هل هذا فى طاقتنا . معناه أن ننزل فى فندق أوماشابه.
ـ عندى تمويل سرى لن اكشف عنه الا فى الوقت المناسب .
ـ ترى ما الذى يريده من هذا ! ...
ـ لا يصح أن يصدر كلام كهذا من زوجتى . ربما كان يريد منا ان نحبه .
ـ لـكن لابد أن اجهز اشياء كثيرة للرحلة .
ـ انه ليس بالـكثير على همتك .

واثناء شربى لفنجان القهوة الثانى عند الافطار كانت مارى قد استعرضت واستبعدت نصف المناطق الترفيهية على امتداد الشاطىء الأمريكى الشرقى كله . مسكينة يا مارى حبيبتى انها فقدت طعم المرح والبهجة هذه الأعوام الأخيرة ! ..
قلت لها :
ـ ارجو أن تمنحينى جانبـا من تفكيرك يانور عينى . هنـاك فرصة لاستثمار هام قريب . اريد مبلغا آخر من نقودك . ان المبلغ الأول اثمر جيدا .
ـ هل يعرف عنه مستر بيكر ؟..
ـ انها فـكرته .
ـ اذن خذ المبلغ . اكتب شيكا به .
ـ الا تحبين ان تعرفى التفاصيل ؟ نوع الاستثمار ، وعائده ، والضرائب الواجبة عنه ، الخ ؟..
ـ لن افهم شيئا من هذا . ولو فهمت ، فلا اريد أن أعرف . كل مايهمنى الآن هو اننا سنقوم برحلة . رحلة لمدة يومين كاملين.

بعد هذا كيف لا أهيم بحب مارى ، بل كيف لا أعبـــدها .
واسرعت اجمع زجاجات اللبن الفارغة وقصدت من فورى الى عملى .
قابلت جو مورفى فى الطريق ، ودخلنا الحارة معا ، ولما رايته متضايقا سألت عن السبب ، فقال :
ـ اننى تعبت من تداول اموال الغير . عندى موعد لعطلة نهاية الأسبوع واخشى أن تعطلنى زحمة العمل .
وحشر ورقة فى قفل الباب ودخل قائلا :
ـ أراك فيما بعد .
واغلق باب البنك . ففتحت باب المحل الخلفى وقلت خلفه :
ـ ياجو . هل تريد شطائر اليوم ؟ ..
فرد من الداخل قائلا :
ـ لا . اشكرك . ربما يوم الجمعة . والسبت مؤكد .
ـ الا تغلق فى فترة الظهر ؟
ـ سبق ان قلت لك . البنك يقفل ، ومورفى يواصل العمل .
ـ اطلبنى اذا اردت .
ـ شكرا . شكرا يامستر هاولى .
ولم يكن عندى ما اقوله اليوم لأصدقائى فوق الأرفف ، واكتفيت بأن اقول : صباح الخير يا سيـــادة . استريحوا .
وقبـــل التاسعة بلحظات كنت اكنس الرصيف الأمامى بعد ان لبست « المريلة » .
وكان مستر بيكر دقيقا فى مواعيده . فى تمام الثامنة و ٥٩ دقيقة كان واقفا لدى باب البنـــك الزجاجى ، حيث وقفت ممســـكا بالمـكنسة ، وقد اعترضت طريقه قائلا :
ـ مستر بيكر . أريد كلمة معك .
ـ صبـــاح الخير يا ايثان . هل يمكنك الانتظار دقيقة ؟ تعال ادخل . تبعته الى الداخل . كانت الصورة كما وصفها جو ، مثل طقس دينى . فقد وقفا وقفة انتباه تام حتى اجتاز عقرب الساعة تمام التاسعة . وتلا ذلك على الأثر « تكتكة » وطنـــين من باب الخزانة الفولاذى الـكبير . وعندئذ أدار جو الأرقام السرية للقفل ثم أدار العجلة التى جذبت الرتاج . فانفتح الهيكل المقدس بجلال وأدى مستر بيكر التحية للأموال المتراكمة . ووقفت خارج الحاجز الحديدى الظر بخشوع متعبد ينتظر التجلى والبركة !

ثم التفت الى مستر بيكر قائلا :
ـ والآن يا ايشان : ماذا يمكن أن أؤديه لك ؟
فقلت برقة . أريد أن أكلمك على انفراد ، ولا يمكننى ان اترك المحل . سأنتهز اول فرصة وامر بك .
وجاء حقا ، فى أقل من ساعة ، ووقف ينتظر الى ان خرج آخر « الزبائن » . فقلت له بلا مقدمات :
ـ مستر بيكر . ان مستر مارولو واقع فى ورطة .
فاقترب منى قائلا :
ـ من أى نوع ؟
ـ لا أعرف بالضبط ياسيدى . اظن انها خاصة بدخوله الى البلاد بطريق غير شرعى .
ـ وكيف عرفت ؟ ..
ـ انه اخبرنى بهذا ، وان قالها بشكل غير مباشر .
بدا لى ان عقله أخذ يعمل بسرعة لالتقاط اجزاء الصورة وتركيبها معا ، وقال :
ـ استمر . النتيجة ترحيل الأجانب غير المرغوب فيهم .
ـ هو هذا كما اظن . انه كان طيبا معى . ولايمكن أن افعل شيئا يضره .
ـ عليك نفسك قبل كل شىء يا ايشان . ماذا كان اقتراحه ؟..
ـ لم يقدم اقتراحا ، ولكننى استخلصت فكرة معناها اننى اذا تمكنت من تدبير خمسة آلاف دولار نقدا بسرعة ، فيمكن أن أتملك المحل .
ـ هل تريد ان اكلمه ؟
ـ انه خارج البلدة .
ـ ومتى يعود ؟ ..
ـ لا أعرف ياسيدى . تذكر ياسيدى ان هذه الفكرة هى مجرد انطباع شخصى ، ولو امكن تدبير المبلغ فقد يوافق . انه يميل الى كما تعرف .
ـ اعرف هذا فعلا .
ـ لابأس . لقد خطر لى انه قد يكون بامكانك أن تجهز أوراق « المبايعة » وتترك التاريخ والمبلغ على بياض . ثم أقوم بسحب المبلغ من حساب مارى يوم الجمعة .
ـ ولماذا الجمعة ؟ ..

ـ سمعته يقول ان الجميع سوف يغادرون البلدة في عطلة العيد، وفهمت انه قد يعود في هذه الفترة . أليس عندك حساب في البنك؟
ـ يا الهي ! انه سحبه بأكمله منذ فترة قصيرة . قال انه ينوي شراء أسهم وسندات . ولم افكر في هذا وقتها لأنه اعتاد السحب وكان يعيد المبالغ بأكثر منها . هل تعرف انك قد تتعرض بهذه العملية الى ضربة شديدة ؟
ـ ماذا تعني ؟ ..
ـ أولا يمكنه أن يبيع المحل لأشخاص متعددين في وقت واحد، وثانيا ان المحل قد يكون غارقا في الرهون .
ـ بامكاني بحث هذه المسألة في مكتب البلدة العقاري . انا اعرف مشغوليتك ياسيدي . واننى استغل صداقتك لأسرتي . وفضلا عن هذا فانك الصديق الوحيد الذي له خبرة بهذه الأمور.
ـ سوف اتصل بتوم واطسون عن الرهون . يالها من ظروف صعبة يا ايثان . اننى اريد ان اقوم برحلة صغيرة مساء غد . واذا تبين ان صاحبنا منحرف فقد يؤدي الأمر الى تجريدك من كل شيء.
ـ اذن فربما كان الأفضل أن انفض يدي من هذه المسألة. لكن يا الهي ! اننى تعبت بامستر بيكر من عملي كبائع في محل بقالة ! أن ماري ستكون سعيدة اذا تملكت المحل . لكن لعلك على حق. لا يجب ان اغامر بمالها .
ـ الحقيقة ان كل ما قلته لي عن صاحبتك لايزيد عن كونه تخمينات وانطباعات . والأفضل ألا تتورط .
ـ عندي فكرة . الا يمكن أن ادفع له نقدا ، دون سجلات مكتوبة ؟ ..
ـ يمكنك أن تكتب على الشيك شيئا مثل : « من اجل استثمار في عمليات بقالة مع ا . مارولتو » . يمكن أن يكون هذا تأكيدا لنيتك فقط ، دون أن تتورط في شيء اذا وقع تحت طائلة القانون.
ـ واذا لم يفلح شيء من هذا ؟ ..
ـ اذن يمكنك اعادة المبلغ الى البنك .
ـ هل تظن ان العملية تستاهل المجازفة ؟ ..
ـ حسنا . كل شيء فيه مجازفة . ليتني لم اكن مضطرا لمغادرة البلدة .
وعندما حضر بعض الزبائن في هذه اللحظة اقترب مني مستر

بيكر وقال بصوت خافت :

ـ سأصرف لك المبلغ أوراق بنكنوت فئة مائة دولار واسجل الارقام . وبهذا يمكنك استرداد المبلغ اذا قبضوا عليه .

وانصرف على الأثر وهو يومىء برأسه تحية لمعارفه من الزبائن القادمين .

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الفصل الرابع عشر

أول يوليو . انه يوم يفرق السنة كفارق الشعر فى الراس . اننى عددته كحد فاصل فى حياتى . امس كنت شيئا معينا ، وغدا شيء آخر مختلف . لقد اتممت استعدادى وهو شيء لا رجعة فيه . ولم يكن فى حسابى ان اخفى عن نفسى ما انا فاعله . فلم يحملنى احد على سلوك هذا الطريق الذى اخترته . وما كان ايسر ان اقول اننى فعلت ذلك من اجل امرتى ، لاننى اعرف اننى واجد فى توفير اسباب راحتهم وأمنهم ما ابتغى من عزة . ولكن هدفى كان محدودا ، وما ان اتممه حتى يسوغ لى ان اعود الى سابق طبعى وسالف شانى . ان الحرب لم تجعل منى قاتلا ، على الرغم من اننى قتلت حينا من الزمن اناسا من البشر .

ومع ذلك فان الأوراق التى سطرها دانى تيلور على عجل كانت بمثابة جرح فى نفسى يورث الحزن والأسى ، ومثل ذلك كان صنيع مارولو معى .

اننى لم امض ليلتى ساهرا مسهدا كما يقال ان الناس يفعلون عشية المعركة . فقد الم بى النوم مسرعا وعميقا وشاملا ، وتخلى عنى فى بكرة الفجر مجدد القوى منتعشا . ثم تسللت بهدوء من الفراش وارتديت ملابسى فى الحمام وهبطت السلالم ملتزما جانب الحائط . ولم ادهش عندما ساقتنى قدماى الى دولاب مخلفات الأسرة ، حيث فتحته واخرجت « تعويذة الحظ » فوضعتها فى جيبى واغلقت الدولاب كما كان ، ثم خرجت من البيت عن طريق الباب الخلفى . ولم اتمالك وانا اسير فى الطريق المظلم الذى حفت به اشجار الدردار على الجانبين ان ساءلت نفسى : ترى لماذا حملت معى « الحجر السحرى » لأول مرة ؟ لدفع شر ؟ لجلب الحظ ؟ اننى لا اومن بقراءة الطالع ، وما كان التعلق بالأمانى فى نظرى الا بضاعة الخائبين .

كانت وجهتى هى المختلى الخاص بى فى الميناء القديم . ولكننى

وجدت بعد طول الرحلة ان كهفي قد امتلأ بأمواج المد واكتنفته الظلمات .

ولما عرجت على كوخ داني تيلور رأيت في الضوء المنتشر الآن الحشائش من حوله قائمة منتصبة ، فدلني هذا على ان قدميه لم تطأ الحشائش وان الكوخ خلو من صاحبه .

هكذا عدت ادراجي وفتحت محل البقالة . وفيما كنت اكنس الرصيف اذ اقبل مستر بيكر في موعده المحدد وباشر على الفور عمليته المقدسة ، وجاءت على الأثر سيارة مصفحة هبط منها حارسان مسلحان وحملا اكياسا رمادية هي اكياس النقود الى داخل البنك . وبعد عشر دقائق عادا الى القلعة الحصينة التي ابتعدت بهما الى وجهة اخرى ، واظن انهما بقيا ، حتى احصى جو مورفي النقود وراجعها مستر بيكر وقدم عنها الايصال اللازم . ولم اشك بالنظر الى حجم وثقل الاكياس ان البنك قد وضع في حسابه عطلة عيد ٤ يوليو وما يقترن بها من كثرة سحب الاموال فاعد للأمر عدته . ولو انني كنت لصا عاديا من لصوص البنوك لكانت هذه هي الفرصة المتاحة للسطو . لكنني لم اكن هذا اللص العادي . ان الفضل في كل ماعرفته يرجع الى جو مورفي . وكان بوسعه ان يكون من كبار لصوص البنوك لو انه رغب في ذلك . ترى لماذا لم تكن عنده هذه الرغبة ، حتى لمجرد ان يجرب نظرياته ؟

كان العمل متواصلا هذا اليوم . وعندما جاء مستر بيكر حوالي الساعة الحادية عشرة كان في عجلة ظاهرة حتى اضطررت الى تأجيل طلبات بعض « الزبائن » ودخلت معه الى المخزن .

وضع مظروفا كبيرا وآخر صغيرا في يدي . وبلغ من تعجله انه كلمني بايجاز شديد قائلا :

ـ قال توم واطسون ان المحل بلا رهون . اليك اوراق تقسل الملكية . ضع الامضاءات تحت العلامات . انني وضعت علامات على المبلغ واخذت الأرقام . واليك الشيك لكي توقع عليه . آسف لاستعجالي يا ايثان .

ولما وقعت على الشيك فحصه جيدا رغم استعجاله وقال لي :

ـ اعرض عليه الفين اولا . ثم زد العرض مائتي دولار كل مرة . لا تنس ان رصيدكم في البنك لايزيد الآن عن خمسمائة دولار . كان الله في عونك اذا احتجت الى نقود . ولكن لابد لي من الذهاب . اريد ان اسرع قبل زحمة المرور وقت الظهر .

ومرهقا اليوم بطيئا ثقيلا . وحوالى الساعة الخامسة جاء ستون سميث رئيس النقطة لشراء بعض المأكولات المجهزة وكان بادى الارهاق ، ولما سألته عما به تملص من الاجابة الصريحة ، وسألنى فجأة :

ـ قل لى يا ايشان : انت صديق لمستر بيكر . هل تعرف ان له معاملات سرية غير مشروعة ؟ ..

ـ وكيف اعرف ؟ .. لست صديقه الى هذه الدرجة .

ـ وما رايك فى مارواللو ؟ .. اين مارواللو الآن ؟ ..

ـ ذهب الى نيويورك لعرض نفسه على اخصائى فى الروماتزم.

ـ يا الهى ! اننى لا اعرف شيئا . لو عرفت ولو شيئا قليلا ، لخطوت على نور .

ـ ما هذا الكلام ياستونى ؟ .. كلامك مبهم .

ـ ابدا . اننى تكلمت بما فيه الكفاية . لكن لن يكون بوسع احد ان ينسب الى شيئا .

وفجأة امسك بذراعى قائلا :

ـ ايشان . هل تظن اننى شرطى صالح ؟ هل تظن ان من الصواب ان يضطروا انسانا الى الوشاية باصدقائه لكى ينقذ نفسه ؟ ..

ـ لا . لا اظن .

ـ ولا انا . لايمكننى احترام رؤساء هذا اسلوبهم . ان ما يحزننى هو اننى لن اكون شرطيا صالحا بعد الآن لاننى لا انظر بالتقدير والرضاء الى ما افعله . ان المساكين كانوا اصدقائى ..

رحت اهون عليه . وقبل ان يحمل ماكولاته قلت له :

ـ كنت اريد الاستفهام منك عن شىء . لقد عثرت وانا انظف المحل على مسدس قديم ، كله صدأ وشحم يابس . وقد قال مارواللو انه لا يخصه . وهو لا يخصنى بالتاكيد . فماذا يمكن ان افعل به ؟ ..

ـ حوله الى اذا كنت لا تريد الحصول على ترخيص عنه .

ـ سلحضره من المنزل غدا . فاننى وضعته فى علبة بها بترول . ماذا تفعل بشىء كهذا ياستونى ؟ ..

ـ انتظر لارى ان كان هناك تحقيق بخصوصه ، وبعد ذلك القيه فى البحر .

فقلت لكى أسرى عنه :

ـ هل تتذكر منذ سنوات قريبة فى بعض جهات الولاية ؟ انهم

ضبطوا البوليس يبيع اسلحة مصادرة ! ..
والواقع ان هذا أضحكه ، حتى حمل لفافته وانصرف احسن حالا مما جاء .

ولما عدت الى البيت آخر النهار وجدت مشكلة فى انتظارى . فان مارى قد اختارت لرحلتنا الوشيكة منطقة خلوية قرب مونتوك كانت أصلا مزرعة لتربية الأبقار ثم تحولت أخيرا الى ساحة لقضاء العطلات حيث ينزل القادمون فى بيوت للضيافة .

ولكن ايلين كانت تريد أن تذهب الى نيويورك لكى تنزل فى احد الفنادق وتمضى يومين فى منطقة « تيمزسكوير » . اما الآن فلم يكن يريد أن يذهب الى أى مكان ، وربما كانت هذه هى طريقته فى لفت الأنظار اليه واثبات وجوده .

هكذا وجدت البيت يغلى بأسباب الانفعال : ايلين تبكى بدموع بطيئة جارية على خديها . ومارى متعبة وموردة من تأثير الاحباط. والآن منزو فى غرفة الجلوس متبرما يستمع الى « الترانزستور » الصغير الخاص به والذى كان يولول بأغنية عن الحب والضياع بصوت أقرب الى الهستيريا تقول : « وعدت أن تكون مخلصا ، ولكنك أخذت قلبى المحب المهجور ورميته على الأرض » .

قالت مارى انها يئست وتكاد تنفض يديها من الرحلة. فقلت لها :

ـ الا يمكن أن نحبسهم فى « البدروم » ونذهب وحدنا ! ..

فقالت وقد اضطرت الى رفع صوتها لكى يكون مسموعا فوق صخب أغنية « القلب المحب المهجور » :

ـ الحقيقة اننى أتمنى الآن ان نفعل هذا .

وفجأة تملكنى الغضب . فاستدرت متجها الى غرفة الجلوس. لكى أمزق ابنى اربا وأرمى « قلبه المحب المهجور » على الأرض وأدوسه. ولكن الموسيقى توقفت فجأة ، وانبعث صوت المذيع قائلا :

« نقطع هذا البرنامج لكى نقدم لكم نشرة أخبار خاصة . صدر أمر قضائى بعد ظهر اليوم بتقديم كبار الموظفين فى «نيوبايتون» ومقاطعة ويسكس الى هيئة المحلفين الكبرى للتحقيق معهم فى الاتهامات الموجهة اليهم والتى تتراوح بين الحصول على الرشاوى عن العقود والمناقصات المتعلقة بالمشروعات العامة وفرض الاتاوات على القائمين بها والتلاعب فى القضايا ... »

هكذا وقعت الواقعة . نزلت الضربة على العمدة ، والمجلس ، والقضاة وغيرهم .

استمعت الى النشرة الاخبارية محزونا مكتئبا . كانوا غارقين في هـــذه الأفعال المنافية للقانون . وحتى لو كانوا ابرياء ، فلن يخلى سبيلهم قبل الانتخابات المحلية . وحتى الذين تثبت براءتهم فالاتهام سوف يظل ماثلا في الأذهان . هكذا أحيـــط بهم . وقد اصغيت لسماع اسم ستونى سميث رئيس النقطة بين أسماء المتهمين ، لكن اسمه لم يرد ، وهكذا استخلصت انه أوقع بهم للنجاة بجلده . وكان في هذا تفسير ما رايت اليوم من ضيقة وغمة .

قالت مارى وكانت تنصت لدى الباب :

ـ حسنا . لم تحدث عندنا اشياء مثيرة منذ مدة . هل تظن يا ايثان ان هذا صحيح ؟ ..

ـ هذا لايهم . ان المقصود اشياء ابعد من ذلك .

ـ ترى ما هو راى مستر بيكر ؟

ـ انه سافر في اجازة . واننى اتساءل مثلك ، ما هو شعوره يا ترى ؟ ..

ان الأخبـــار ، والعشاء ، والأطباق ، شغلتنا كلها عن مشاكل الرحلة حتى فات الوقت أو كاد لاتخاذ قرار نهائى ، او لمزيد من الدموع والخصام .

ولما اويت الى فراشي لم استطع ان اغالب تلك الرعشـــة التى انتابتنى من قمة رأسى الى اخمص قدمى . وقالت لى مارى :

ـ اراك في حالة سيئة ياعزيزى . هل تشعر بمرض ؟ ..

ـ لاياحبيبتى . اننى اكاد أشعر بما يشعر به هؤلاء النـــاس . لابد انهم في أسوأ حال .

ـ كفى يا ايثان . لايمكن ان تحمل على كتفيك متاعب الآخرين .

ـ بل هذا هو الواقع .

ـ ترى هل يمكن ان تصبح من رجال الأعمال يوما ما ؟.. انت كثير الحساسية يا ايثان . ليست هذه جريمتك .

ـ بل ربما كانت جريمتى ... وجريمة كل انسان .

ـ لست افهم .

ـ ولا انا ياحبيبتى .

ـ لو كان عندنا فقط من يمكن ان يبقى مع الأولاد !..

ـ كررى هذا الكلام ياحبيبتى . كرريه .

ـ ليتنى كنت استطيع ان أقضى اجازة معك وحدك .

ـ ان أقاربنا معدودون . فكرى معى ياحبيبتى . لو امكن ان

« نعلب » الأولاد أو « نخللهم » لمدة قصيرة ! .. فكرى معى واقدحى زناد فكرك يانور عينى . انا مشتاق لكى نكون وحدنا نحن الاثنين فى مكان غريب بعيد ... بعيد . ضمينى الى صدرك ... لنفكر فى طريقة .

ـ أراك ماتزلت ترتعش !.. هل تشعر ببرد ؟..

ـ برد وحر . امتلاء وخواء . أنا متعب .

ـ سأحاول التفكير فى طريقة تخلصنا منهما . نعم اننى احبهما ، لكن ...

ـ انا أعرف .

ـ هل سيوضعون فى السجن ؟ ..

ـ باليت ...

ـ أقصد اولئك الموظفين ...

ـ لا . لن يكون هذا ضروريا . بل انهم لن يمثلوا امام المحلفين قبل يوم الثلاثاء القادم ، والخميس هو موعد الانتخابات . هذه هى الحكاية المرسومة .

ـ ايثان ! انت متشكك فى كل الناس ... ومتشائم .

فجأة شعرت بالخوف . خشيت ان يكون تأثرى بالأحداث الجارية سبيلا لاظهار ما أضمره فى نفسى . ان مارى رغم انها تعيش فى دنيا كلها ورود واحلام قد تأنس فى مسلكى أو انفعالاتى بادرة تكشف المستور من خطتى . وفى هذا خطر كل الخطر ، الى ان يمر الغد بسلام .

لو ان هذه الخطة نبتت امامى كاملة لرفضتها كعمل ظاهر الاستحالة . ولكنها بدأت لعبة . بدأت بالقواعد التى شرحها جو مورفى لسرقة أى بنك . وبسبب ما كنت أعانيه من ضيق وضجر فى عملى التافه تعلقت بهذه اللعبة واخذت اربط بينها وبين كثير من الأشياء الصغيرة التى كانت تقع فى طريقى : ابنى الآن وقناع الفأر ميكى ماوس ، « التواليت » الذى يتسرب منه الماء ، المسدس الصدىء ، اقترابه عطلة العيد ، مدلومة جو مورفى على حشر ورق فى قفل باب البنك الخلفى المطل على الحارة المشتركة بيننا . وقد رحت أكمل اللعبة برسم توقيت للعملية ذاتها ، واجراء تجارب نظرية وفعلية .

ولست أدرى متى أصبحت اللعبة غير معدودة لعبة فقط . ربما كان ذلك عندما عرفت اننى قد اشترى المحل وقد احتاج

الى مال لادارة العمل فيه . ثم انه من الصعب نبذ عملية ناضجة دون اختبارها عمليا . أما عن الجريمة ، والخروج عن نطاق الشرف والأمانة ـ فانها ليست بجريمة ضد الناس ، بل ضد المال فقط . لن يضار احد بهذه الفعلة . فالمال مؤمن عليه . أما الجريمة الحقيقية فهى ضد الناس ، ضد دانى تيلور ، وضد الفيو مارولو . ولو تهيأ لى ان اقوم بالعملية ، فان السرقة لن تكون شيئا مذكورا . وسوف تكون عملية موقوتة عارضة . ولن يتكرر مثلها بحال . وصفوة القول قد وجدت قبل ان ادرك انها لم تعد لعبة ، ان خطتى اصبحت تامة : عدة وتوقيتا .

صحيح ان طروء حادث عرضى كان محتملا . لكن هذا محتمل ايضا اثناء عبور شارع او سير تحت شجرة . وهكذا لم يبق عندى خوف ، وكل ما كان يلابسنى هو ذلك الاشفاق الذى يعرض للممثل وهو واقف بين الكواليس فى الليلة الافتتاحية ، على وشك الانتقال الى خشبة المسرح .

وفى خشيتى من عدم النوم نمت نوما عميقا ، بلا احلام ، واستيقظت متأخرا حتى نهضت من الفراش منتفضا مما ايقظ مارى التى قالت :

ـ ماذا جرى ؟ ..

ـ تأخرت فى النوم .

ـ كلام فارغ . لايزال الوقت مبكرا .

ـ ابدا ياملاكى . هذا يوم سوف يشترى فيه الناس كل بقالة الدنيا .

ـ ستحتاج الى افطار مشبع .

ـ هل تعرفين ما سأفعل ؟ سآخذ قهوة مضاعفة من عند فورماستر ، وانقض على معلبات مارولو مثل ذئب . فكرى انت فى طريقة لهروبنا من اولادنا الأعزاء . اننا بحاجة الى هذا . وانا اعنى ما اقول .

وارتديت ملابسى وخرجت قبل محاولة جديدة من جانبها لتوفير راحتى وهنائى .

قابلت جو مورفى فى الحارة الفاصلة بين البنك والمحل كالمعتاد ، فبادرنى على الفور قائلا :

ـ ما رأيك فى الأخبار التى اذيعت ؟

ـ مثيرة بلا حدود .

ـ بامكان بيكر ان يعود الآن . ترى هل يفعل ؟ ..

ـ يعود ؟ ..
ـ ألا تشم شيئا ؟ ..
نظرت اليه متحيرا وقلت :
ـ هنا لى اشياء لا تزال غائبة عنى .
فقال بلهجة غامضة :
ـ انتظر ، وسوف ترى العجب العجاب .
قال جو مورفى هذا وهو يدس قطعة ورق فى فتحة القفل كعادته ثم استأذن ودخل دون تعقيب آخر . دخل بابه ولم أسمع صوت زنبرك القفل « يتك » ! .. وارجو الا يعرف جو مورفى فى يوم من الأيام انه كان الفضل معلم لى . فانه لم يعلمنى فقط ، بل انه مثل الواقع هنيا ! دون وعى منه ، وبذلك مهد الطريق أمامى.
لكن هناك سؤال منطقى قد يوجه الى : اذا كان قد أصبح من المحقق اننى انال المحل لنفسى ، فما حاجتى الى المال اذن ؟ لاشك ان كثيرا مثل مستر بيكر وجو مورفى يعرفون الرد ، وكذلك مارولو بالطبع. ان المحل بغير رأس مال سائل هو أسوأ من لا محل. فالافلاس هنا محقق. ان الموردين لايفتحون ايديهم بسخاء لأصحاب المحال الناشئين . واذن فلابد لى من مال حاضر ، وهذا المال موجود ينتظرنى خلف أبواب البنك ، وعملية الاستيلاء عليه لم تلبث ان انتقلت من نطاق القصور الى دائرة الواقع المؤكد . وكون السرقة شيئا غير مشروع امر لم يقلقنى كثيرا . ولو كان مارولو مكانى لما تردد فى الاقدام عليها . انما الذى كان يقلقنى هو ما انتهى اليه امر دانى ديلور ، وان كان مقضيا عليه على اى حال . ثم ان محاولة مستر بيكر الفاشلة لكى يفعل مع دانى نفس ما فعلته كانت تبريرا كافيا لعملى . ورغم هذا فان مسألة دانى بقيت بمثابة الجرح الملتهب فى امعائى ، وكان على ان أحتمل الجرح كما يحتمله من يخوض معركة ناجحة . ولعل الزمن كفيل بابراء هذا الجرح فى يوم من الأيام .
كانت المسألة المباشرة الآن هى المال ، وقد انهمكت اعداد الخطة بكل دقة .
ان القواعد التى ذكرها مورفى كانت ماثلة فى ذهنى تماما ، القاعدة الأولى : عدم وجود سابقة ـ لا سوابق لى على الأطلاق . القاعدة الثانية : عدم وجود شركاء ـ من المؤكد انه لاشريك لى فى التدبير أو التنفيذ . القاعدة الثالثة : عدم وجود امرأة ـ والواقع ان

مارجي الملقبة « بالصيادة الشابة » هي الوحيدة التي يمكن اطلاق هذا الوصف عليها ، ولم يكن في نيتي بأي حال ان أشرب الشمبانيا من حذائها . القاعدة الرابعة : عدم التبذير - والحقيقة انني ساستعين بهذا المال لسداد فواتير تجار الجملة ، وسوف اخفيه في مكان امين لا تمتد اليه يد .

بقيت مسألة التعرف على الفاعل . انني سالبس قناع الفأر ميكي ماوس ، ولن يبصر أحد شيئا آخر . وسأرتدي معطفا واقيا قديما للمرولو ، ومثل هذه المعاطف متشابهة ، الى جانب قفاز من السيلوفان مما يباع في كل مكان . وسيلقى القناع والقفاز في « التواليت » حال اتمام العملية . اما المسدس القديم فسوف يسلم بعد انتهاء الغرض منه الى رئيس النقطة ستونى سميث باقرب فرصة .

وهناك قاعدة اخيرة اضفتها من عندي . عدم الطمع وتجنب فئات البنكنوت الكبيرة . فلو وجدت امامي حوالي ستة آلاف او عشرة آلاف دولار من فئة العشرة او العشرين دولارا لكان هذا القدر كافيا وسهلا اخفاؤه .

وعلى هذا النحو يكون كل شيء على احسن مايرام .

ولم يكن يؤسفني الا عدم وجود مستر بيكر في البنك وقت العملية . لن يكون هناك سوى مورفي وزميليه هاري وادبث . وكان التوقيت مرسوما بكل دقة . ففي الساعة التاسعة الا خمس دقائق اضع المكنسة في المدخل . ثم البس « المريلة » ، واعلق الصفارة في سلسلة « السيفون » لكي يتدفق الماء باستمرار في «التواليت» . فاذا جاء اي انسان سمع صوت المياه وفهم ماهو مطلوب ان يفهمه . ثم المعطف ، والقناع ، والمسدس ، والقفاز ، وعلبة فارغة للنقود .

وفي تمام التاسعة يكون عبور الحارة ، ودفع الباب الخلفي ، ولبس القناع ، والدخول عقب سماع صوت فتح باب الخزانة . ثم تهديد الموظفين الثلاثة بالمسدس لكي ينبطحوا على الأرض ، بالحركات طبعا ودون اي كلام - ولن تصدر منهم اية مقاومة ، لان جو مورفي خال ان المال مؤمن عليه ، ولا تأمين على حياتهم هم . ثم أخذ النقود ، ووضعها في العلبة ، وعبور الحارة والقاء القناع والقفاز في «التواليت» الجاري المياه ، ووضع المسدس في اناء البترول كما كان ، وخلع المعطف ، وانزال « المريلة » كما كانت حول الوسط ، واخفاء النقود في علبة القمامة ذات التجويف السري ، واخذ المكنسة ، واستئناف

عملية كنس الرصيف ، لكي أكون تحت الأنظار عند الانذار بوقوع السطو . ان العملية كلها لن تستغرق اكثر من دقيقة واحدة واربعين ثانية ، بالتجربة والمران مرارا وتكرارا .

ومع ذلك ، وبرغم هذه الدقة المتناهية فى التخطيط والتنفيذ ، فاننى لم املك أن شعرت بقلبى يخفق انفعالا ، وبدا لى وانا انظر الى عقربى ساعة ابى الكبيرين انهما لايكادان يتحركان ، وكان الزمن قد توقف .

لقد مضت فترة طويلة منذ أن خاطبت « اصدقائى » لآخر مرة ، ولكننى اتجهت اليهم هذا الصباح بالحديث ، ربما تأثرا وانفعالا:

ـ أصدقائى . ان ما سوف تشهدونه هو لغز خفى . وانا اعرف انه يمكننى الاعتماد عليكم لالتزام الصمت . واذا كان بينكم من يخامره اى احساس بصدد الجانب الأخلاقى لهذا العمل ، فليتفضل بالخروج .

وتوقفت برهة ، ثم اردفت :

ـ لا اعتراض ! حسنا جدا . اذا سمعت فى اى وقت ان «معلبا» منكم ناقش هذا الأمر مع الأغراب ، فسوف يكون جزاؤه الاعدام بالشوكة ... وانتهز هذه الفرصة فاوجه اليكم شكرى . لقد كنا جميعا هنا خداما متواضعين لتلبية الطلبات واشباع البطون ، وما كنت الا خادما مثلكم . أما الآن فهناك تغيير وشيك. سوف اكون منذ الآن فصاعدا السيد الأمر الناهى ، لكننى اعدكم اننى ساكون سيدا طيبا وشفوقا ومتفهما . ان الوقت يقترب ايها الأصدقاء ، والستار يرتفع ، فالى اللقاء .

وعندما تحركت الى الباب الأمامى بالمكنسة ، سمعت صوتى يهتف : « داتى ـ داتى ـ اخرج من معدتى وخلصنى من الغثيان!».

وانتابتنى رجفة عنيفة هزتنى هزا حتى اضطررت أن استند الى المكنسة برهة قبل ان افتح الباب .

كانت ساعة ابى بؤذن عقربها القصير بالتاسعة ، وعقربها الطويل بنقص ست دقائق . وسمعت دقاتها قوية فى راحة يدى كقلب قوى خفاق .

الفصل الخامس عشر

كان اليوم مختلفا عن سائر الأيام كما تختلف الكلاب عن القطط والأسود عن الأبيض . ففيه امطرت السماء رغم شمس يوليو ولم تترفق بالحشود الزاحفة الى الشواطىء فى عطلة العيد لا تسترها سوى ملابس الصيف .

وكانت محال البقالة المماثلة لا تفتح قبل منتصف العاشرة، ولكن مارولو كان يسبقها بنصف ساعة لكي يقتنص ما يستطيع من « الزبائن » . لقد فكرت ان اغير هذا الأسلوب عندما يؤول الأمر الى ، لأنه يوفر صدور اصحاب المحال بأكثر مما يبرره الربح . ولكن مارولو لم يكن يحفل بهذا ، فهو اجنبى ، وهو مجرم وطافية، وهو معتصر لدم الفقراء ، وهو عشرات أخرى من هذه الصفات والمثالب . لقد كان من الطبيعى وقد سعيت الى القضاء عليه ان تبدو لى جرائمه ونقائصه واضحة مجسمة .

رحت أراقب عقرب الدقائق الطويل فى ساعة ابى يتحرك ثقيلا وانا اكنس بغلظة ومتوتر الأعصاب فى انتظار لحظة العمل السريع الحاسم . وكنت اتنفس من خلال فمى وقد شعرت بمعدتى تندفع الى رئتى كما لو كانت تشاركنى فى التحفز للهجوم .

كان الناس فى يوم السبت هذا الرابع من يوليو قليلين فيما حولى. ولم أتمالك أن عجبت لتأخر موظفى البنك فى الحضور ، ولعلهم كانوا مثل فئران تلهو فى غياب القط بيكر . فهم الذين انشدهم واريد حضورهم لفتح البنك فى الموعد المحدد . وكانت الساعة أقل من التاسعة بدقيقة عندما اندفعوا خارجين من المقهى واسرعوا بعبور الشارع ، حتى هتفت بهم :

ـ اجروا ! اجروا !

فعلت وجوههم الابتسامات وهم يفتحون أبواب البنك ، وان كانوا فى غفلة عما هو مدخر لهم .

الآن قد حانت اللحظة الحاسمة . ينبغى الا افكر فى العملية كلها ، وانما اسير فيها خطوة خطوة ، وكل خطوة فى مكانها المرسوم ، طبقا

لما رسمت وتدبرت . وهكذا تحاملت على معدتي لكي تهبط الى مكانها الطبيعي ، واسندت المكنسة الى جانب الباب لكي تبدو لكل العيان . وبدأت أتحرك بسرعة فيها العزم والقصد .

ثم لمحت من زاوية عيني سيارة تدرج في الشارع وتوقفت لكي ادعها تمر .

ـ مستر هاولي !

استدرت بعنف كما يفعل رجال العصابات في أفلام السينما عندما يحاصرون وتسد عليهم المسالك. فرأيت السيارة تقف لدى الناصية ويهبط منها ـ يا الهي ـ ذلك المندوب الحكومي الذي تحدثت عنه.

ان الأرض الصلبة التي وقفت عليها مادت من تحت قدمي وترنحت كانعكاس صورة في المياه . ورأيته وأنا مشلول مكاني يتقدم نحوي . وخيل الى كأنما استغرق في هذا دهرا . لكن هذا هو ما حدث ببساطة. ان البناء القوي الذي أقمت صرحه تخطيطا وتنفيذا ما لبث أن استحال الى تراب أمام عيني ، كما يتحول تمثال طال دفنه تحت الثرى بمجرد أن يلفحه الهواء .

لقد خطر لي أن اندفع الى « التواليت » وامضي في اتمام عملية السطو على البنك . لكنها لن تنجح الآن . وما كان لي أن انتهك القواعد التي أستنها جو مورفي . وان كانت في الحق صدمة كبرى أن يتخلى الانسان عن خطة أطال التفكير فيها وتدرب عليها مرارا حتى لم يكن تنفيذها الا مجرد تكرار أخير. ولكنني مع ذلك نبذتها نبذا ، وانصرفت عنها نهائيا . فلم يكن لي من خيار ولا كانت لي حيلة ، وطافت برأسي فكرة تقول : الحمد لله انه لم يخضر بعد هذا بدقيقة ، والا كان ذلك هو المصادفة القتالة التي يتحدثون عنها في القصص الجنائية .

قال الرجل ولابد انه استشف شيئا من حالي :

ـ مالك يامستر هاولي ؟ يبدو عليك المرض .

فقلت : أسهال .

ـ هذا شيء لايصبر عليه أحد . اسرع . سأنتظر .

اندفعت الى « التواليت » ، وأغلقت الباب ، وجذبت السلسلة لكي يتدفق الماء . ولم أضيء النور . وجلست في الظلام وأمعائي المضطربة في حركة مائجة . وبعد لحظة حدث ما لابد من حدوثه ، ورويدا تلاشت الضغوط التي كنت ارزح تحتها . ولم أتمالك أن أضفت قاعدة جديدة الى قواعد جو مورفي : في حالة حدوث

طوارىء ، غير خطتك فى الحال .

كان يحدث لى هذا من قبل فى الأزمات أو الخطر الشديد :كنت انفصل عن ذاتى واراقب وكأننى غريب يسجل ويرصد ـ اراقب نفسى وحركاتى وتفكيرى ، لكن فى منعة من التأثر بالانفعالات المتولدة . وفى جلستى فى الظلام هذه رأيت الشخص الآخر يطوى خطته المحكمة ويضعها فى صندوق ويطبق عليها الغطاء ويواريها لا بعيد عن نظره فقط بل عن تفكيره . وبعبارة أخرى ماهو الا أن قمت فى الظلام وسويت ملابسى ووضعت يدى على الباب الرفيق حتى كنت من جديد بائع محل البقالة المستعد ليومه الحافل بالعمل . لم يبق شىء من التخفى والليذ بالتكتم والسرية . ورحت على الأثر اتساءل ما الذى يريده منى هذا الشاب القادم ، بلا خوف الا من ذاك الاشفاق اليسير المتولد من خشية الاحتكاك بالبوليس.

قلت له :

ـ آسف لجعلك تنتظر . لا اتذكرما الذى اكلته حتى سبب هذا الاسهال .

فقال :

ـ هناك ميكروب دائر هذه الأيام . هذه الحالة حدثت لزوجتى فى الأسبوع الماضى .

ـ ان هذا الميكروب كان يحمل مسدسا فى بطنى . ولولا اننى اسرعت ... هل من خدمة اقوم بها ؟ اتذكر انك كنت هنا قبل الآن . ما هو عملك ؟ ..

فأجاب باسما :

ـ أنا تابع لوزارة العدل . لكننى لست الآن فى مهمة رسمية. ولا اظن حتى ان الوزارة ستوافق ، لكن انا اليوم فى راحة .

وصمت برهة . ثم اردف :

ـ الحكاية معقدة ، ولا اعرف تماما من اين ابدأ. انا فى الخدمة منذعشرسنوات ياهاولى، لكننى لم اصادف ابدا مثلهذه المسألة.

ـ ربما لوشرحت لى لأمكن ان اساعدك . اظن ان اسمك والدر.

ـ رتشارد والدر .

ـ اسمع يامستر والدر . ان « الزبائن » سوف يهجمون بعد قليل ، فقل لى ما هى مشكلتك . اننى تكلمت مع مستر بيكر فى البنك ، وانت تطارد مستر مارولو ، رئيسى .

فقال بصوت خفيض :

ـ وقد تمكنت منه .
ـ لأى شيء ؟ ..
ـ دخول البلاد بصورة غير شرعية . ليس هذا ذنبي . انالوزارة تقذف الى بملف ، فاتتبعه ، وليس من شأني أن أحاكمه .
ـ هل سيعملون على ترحيله ؟ ..
ـ نعم .
ـ هل يمكنه ان يعارض . هل يمكن ان اساعده ؟ ..
ـ لا. هو لايريد ذلك. لقد اعترف بجريمته . ويريد أنيرحل..
في هذه اللحظة دخل سبعة او ثمانية « زبائن » ، فقلت له :
ـ انني حذرتك .
وانصرفت الى خدمتهم . ومن حسن الحظ انني كنت قد تأهبت لهذه المناسبة واستحضرت مايكفي لمواجهة الطلبات الخاصة بعطلة العيد .
وما أن فرغت بعد انصرافهم حتى قلت له :
ـ قل لي بسرعة ماذا تريد ؟ ..
ـ انني وعدت مارولو بالحضور الى هنا . انه يريد ان يعطيك المحل .
ـ انت مجنون . عفوا ياسيدتي . انني كنت اكلم صديقي .
ـ آه ، بالطبع . اريد لفائف فرانكفورتر تكفيخمسة اشخاص.
على هذه الصورة كان انقطاع الحديث مع صاحبي ، وعند استئنافه من جديد قال لي :
ـ الحقيقة انني أعانيمن صدمة . ان عملي في الغالب مع المجرمين والمحتالين والنصابين ، فاذا وجدت بينهم شخصا مستقيما كان ذلك صدمة لك ولا شك .
ـ ماذا تقصد بكلمة « مستقيم » ؟ ان رئيسي لم يكن كريما في أي يوم . انه رجل لئيم .
ـ اعرف هذا . ونحن الذين جعلناه هكذا . انه صارحني وقد صدقته . قبل حضوره الى هذه البلاد كان يصدق الكلماتالمنقوشة على «تمثال الحرية» ، ويعي في ذاكرته منطوق «اعلان الاستقلال» و « وثيقة الحقوق » . ولكنه بعد هذا لم يتمكن من دخول البلاد . ومع ذلك فقد دخل . ساعده « انسان عطوف » بعد أن اخذ منه كل ما يملك وانزله بين امواج الشاطيء لكي يخوضها حتى البر.ومضتمدة طويلة قبلما استطاع أن يفهم «الطريقة الأمريكية» ،

ولـكنه تعلم ، وتعلم ، حتى استطاع أن يقف على قدميه ويكون ثروته . وهذا هو السبب فى انه لم يتألم عندما وشى به أحدهم .

ـ وشي به ؟ ..

ـ بالتأكيد . كل ما لزم هو مكالمة تليفونية .

ـ من هو المتكلم ؟ ..

ـ من يعرف ؟ .. ان الجهاز الادارى كآلة . كل ماهو مطلوب هو أن تحرك المفاتيح فتمضى الآلة تلقائيا الى النهاية .

ـ ولمـــاذا لم يقاوم ؟ ..

ـ انه تعب . ثم انه «قرف» . وقد جمع مالا ، ويريد العودة الى صقلية .

ـ مازلت لم أفهم حكاية المحل .

ـ انه اختبرك ووجد فيك الاستقامة ، فمال اليك .

ـ واذا كان مخطئا فى ظنه ؟

ـ ليس هذا رأيه . انه يريد أن يجعل منك رمزا أو تمثالا باقيا لشيء كان يؤمن به فى وقت ما . ان معى فى السيارة أوراق نقل ملـكية المحل . وكل ما هو مطلوب منك هو ملؤها .

وخرج الى السيارة وعاد بعد قليل ومعه مظروف منتفخ،وقال لى:

ـ لابد أن أذهب الآن . أمامى أربع ساعات فى السيارة لكى أعود الى زوجتى التى تكاد تجن من الانتظار . اننى ســـألته ان كانت عنده رسالة لابلاغها لك ، فقال : « قل له : حظا سعيدا » . هل عندك رسالة له ؟

ـ قل له : « صحبتك السلامة » .

وأقبلت موجة أخرى من « الزبائن » . فألقيت المظروف فى الدرج أسفل مسجلة النقد وقلبى مفعم بالأسى .

الفصل السادس عشر

مضى النهار سريعا ومع ذلك بدا وكأنه بلا نهاية .

وجاء جو مورفى وانا أوشك اغلاق ابواب المحل الأمامية . وقد حاولت ونحن نحتسى شرابا خفيفا من المعلبات أن اخبره بحكاية مارولو والمحل ، فوجدت اننى لا أستطيع ، حتى ولا الحكاية التى قيلت لى بدلا من الحقيقة التى اعرفها وحدى . وقد قال لى :

ـ يبدو عليك التعب .

ـ أظن هذا . انظر الى هذه الأرفف . لقد جردوها !

وافرغت محتويات مسجلة النقد فى الكيس الرمادى المخصص لها ، ووضعت معها النقود التى جاءنى بها مستر بيكر ، وفوقها المظروف المنتفخ ، وحزمت عنق الكيس بقطعة دوبار . فقال لى :

ـ لايجب أن تترك هذا عرضة للأنظار .

ـ ربما كان ، تقول . سأخفيها فى مكان آخر .

ـ بالمناسبة ، هل تعرف ان غريزتى فى التكهن المسبق لاتكذب ؟ لقد استيقظت اليوم وعندى شعور قوى بأن البنك سوف يتعرض للسرقة هذا اليوم . اننا نضع أوتادا صغيرة تحت جرس الانذار الأرضى لئلا ندوس عليها خطأ . وكان اول مافعلته هذا الصباح هو اننى رفعت هذه الأوتاد . ومعنى هذا متى كنت واثقا من حدوث سطو . فكيف تفسر هذا ؟ ..

ـ ربما كان أحدهم خطط للسرقة وقرأت أنت افكاره فعدل . هل تعرف ياجو اننى من شدة التعب لن أتمكن من الكنس اليوم ؟

ـ لاتترك كل هذه النقود هنا الليلة . خذها الى البيت .

ـ ليكن ، مادمت تقول هذا . ساحملها كلها فى هذه الحقيبة الجلدية . هل قلت لك اننا سنقوم برحلة ؟

ـ نعم . أنت فى حاجة اليها . هل أنت مستعد للانصراف ؟..

ـ عندى بعض اشياء اريد ان اسويها . اذهب انت مع السلامة ياجو .

واول شىء فعلته بعد انصرافه هو الاتصال بفينوتيا بعارى لكى

اقول لها انني ساتاخر قليلا ، فبادرت تقول بلهفة :
ـ نعم . لكن اسرع . اسرع . اسرع . عندى اخبار عظيمة ! عظيمة !.. عظيمة !..
ـ الا يمكنك ان تقوليها الآن ياحبيبتى ؟ ..
ـ لا . اريد أن ارى وجهك اولا ! ..
لبست معطفى وقبعتى واطفات انوار المحل وجلست فوق المنصة مدلى الساقين . كان الهدوء سائدا ، وهو الهدوء الذى كنت بحاجة اليه . وشعرت فى جلستى محشورا بين مسجلة النقـــد وبعض الأرفف بجسم مكتل يخزنى اسفل ظهرى . ولما تحسست جبينى عثرت على « تعويذة الحظ » التى كنت وضعتها ونسيتها . لقـد اخرجتها الآن ورفعتها بين يدى وجعلت احدق فيها . خطر بالأمس اننى فى حاجة اليها . فهل ترانى نسيت اعادتها الى مكانها ، أم ان احتفاظى بها لم يكن مصادفة ؟ لا أعرف .
لم أكن بحاجة الى التفكير بقدر ما كنت بحاجة الى اعادة ترتيب افكارى . كنت بحاجة الى نوع من « البديل المؤقت » لكى الوذ به ريثما يتيسر لى أن اقيم البناء من جديد . كنت الآن اشبه بهذه الأرفف التى هاجمها « الزبائن » بضراوة وفتحوا فى صفوفها هذه الثغرات العميقة واصبحت فى حاجة الى ملئها وتسوية صفوفها لكى تتماسك وتنتظم من جديد . وهكذا وجدتنى أقول لها :
ـ فلنصل من اجل اصدقائنا الراحلين . لـكن الباقى علينا نحن معشر الأحيـاء ... آه يا الفيو مارولو ! اننى اتمنى لك الحظ والتوفيق والخلاص من الآلام الجحود ونكران الجميل. انك ضحيت، لانك كنت انت ضحية . واردت بصنيعك ان تبقى شعلة الاستقامة مضيئة بعد ان اطفأوا فيك الشعلة افسادا واغواء وتلويثا .
فهل اكون أهلا لحمل الشعلة حتى تبقى منارا مشرقا وسراجا وهاجا ؟ ..

الفصل السابع عشر

كنت أستطيع ان أشعر ببيتى وانا لازلت عند الناصية ، بيت آل هاولى . فى الليلة الماضية رقد البيت قابعا خائفا فى الظلمة ، ولكنه بدا هذه الليلة يشع انفعالا . فالبيت ، مثل حجر الأوبال الكريم ، يتلون بالوان اليوم . والواقع ان مارى لم تكد تسمع وقع خطواتى فى الممشى الخارجى حتى اندفعت الى الباب الأمامى كشعلة ملتهبة ، قائلة :

ـ لايمكنك أن تتصور ابدا !

ـ قولى ياحبيبتى ماعندك ، بلا مقدمات تمثيلية .

ـ ان مارجى هى أحسن صديقة فى الدنيا كلها . انها ستشرف على الأولاد لكى نقوم برحلتنا وحدنا .

ـ هل هذه خدعة ؟ ..

ـ اننى لم أطلب منها . انها تطوعت .

ـ انهم سوف يأكلونها حية ! ..

بل انهم مفتونون بها . انها ستأخذهم الى نيويورك بالقطار يوم الأحد ، وتبقى معهم الليل فى شقة صديقة ، ويوم الاثنين يشاهدون حفلة رفع العلم الجديد بانضمام الولاية الخمسين فى مركز روكفلر ، ويتفرجون على الاستعراض ، وكل شىء .

ـ اننى لا اكاد اصدق .

ـ اليس هذا شيئا رائعا ؟ ..

ـ بل هو أروع شىء . ولذن فسوف نتمكن من الذهاب الى ضواحى مونتوك كما كنا نفكر .

ـ أننى اتصلت فعلا بالتليفون وحجزت غرفة لنا .

ـ هذا مذهل ! اكاد انفجر من الدهشة ! أشعر بأننى أنتفخ !

وخطر لى ان اخبرها بحكاية المحل ، ولكن كثرة الأخبار المفرحة تؤدى الى التقلصات المعوية كما يقولون . ومن الخير أن أنتظر وأخبرها بعد الوصول الى وجهتنا .

وجاءت ايلين الى المطبخ متسللة ، قائلة :

ـ بابا . ان ذلك الحجر الوردى قد اختفى من الدولاب ! ..
ـ هو معى . فى جيبى . هاهوذا . ولك ان تعيديه الى مكانه .
ـ انك أوصيتنا الا ناخذه بعيدا عن مكانه بأى حال ! ..
ـ ومازلت أوصيكم بهذا ، والموت جزاء من يخالف .
فانتزعته بحركة اقرب الى الشراهة وحملته بين يديها الى غرفة الجلوس .
ورأيتعيني مارى مسلطتين على بنظرات غريبة مكتئبة ، وقالت:
ـ لمـــاذا أخذته يا ايشان ؟ ..
ـ من أجل الحظ ياحياتى ، وقد ثبت مفعوله !

الفصل الثامن عشر

أمطرت السماء يوم السبت ، الثالث من يوليو ، مطرا دسما اكثر من المعتاد . واخذنا نشق طريقنا بالسيارة فى الطرقات المبللة وفى غمار حركة المواصلات المتكاثفة وشعورنا أقرب الى الاحساس بالضياع كطيور اطلقت من قفصها فانتابها الروع عندما واجهتها الحرية .

قلت لمارى وقد جلست معتدلة القامة :

ـ هل انت سعيدة ؟ .. هل انت مرحة ؟ ..

ـ اننى افكر فى الأولاد . ترى ماذا يفعلون الآن ؟

ـ كل ما يمكن أن تتصوريه ، الا ان يفكروا فيما نفعله نحن .

ـ اظنك على حق . سأحاول أن انسى واتسلى بالمناظر الطبيعية فى هذه المنطقة الجميلة من « لونج ايلاند » .

وكان البيت الخلوى الصغير الذى خصص لنا مؤلفا من غرفة واحدة نظيفة منسقة . وبعد أن تناولنا العشاء الذى امتزج بكثير من الشراب لم نستطع أن نغالب النوم الذى زحف الينا قاهرا غلابا بتأثير الرحلة الطويلة والاسترخاء الجم بعد طول كد وعناء . وكانت مارى أسبق منى ، كعادتها ، استسلاما لسلطان النوم .

واذا كان الفجر قد بزغ مقترنا برعد ، فاننى لم أسمعه . وانما فتحت عينى على طبيعة مشرقة ذهبية اختلطت فيها الوان الخلنج الزاهية بخضرة السرخس الباهتة وصفرة الكثبان الرملية مترامية حتى الأطلنطى التى كانت صفحته تتلألأ على البعد مثل صفحة من قضة مطروقة . وكان ثمة طريق يكسو بالحصى ينتظم هذه البيوت الصغيرة فى شبه قرية خلوية قامت فى قلبها قاعة كبرى للطعام يغشاها النزلاء جميعا .

وقصدت من فورى الى مكتب المدير وكان يحسبنا عند قدومنا من العشاق ، فقلت له :

ـ صباح الخير .

فسدد أنفه الى قائلا :

ـ هل نمتم نوما هنيئا ؟ ..
ـ جدا . هل يمكن أن أحمل صحفة افطار الى زوجتى ؟
ـ ان الاكل يقدم هنا فى قاعة الطعـــام ، من السابعة والنصف الى التاسعة والنصف .
ـ لـكن اذا حملتها بنفسى ...
ـ هذا مخالف للاصـــول هنا .
ـ ألا يمكن أن نخالفها مرة ؟ .. انت تعرف الظروف .
قلت هذه العبارة عامدا ، اذ كانت هى ما يشتهيه مثله ، فقال وقد شاع السرور فى وجهه :
ـ السيدة تشعر بالخجل . اليس كذلك ؟ ..
ـ انت تعرف مثل هـــذه الظروف .
ـ لا أعرف ما الذى يقوله الطباخ فى هـــذا ...
ـ اطلبه منه وقل له هناك دولار ينتظره واقفا على حافته :
كان الطاهى يونانيا ، وقد وجد الدولار جذابا . وفى الوقت المحدد الفيتنى أحمل صفحة حافلة مكسوة بغطاء ، وقد زينتها فى الطريق بباقة من الأزهار البرية تجميلا لمـائدة الافطار الملـكية التى حملتهـا الى حبيبة الروح . ولعلها كانت مستيقظة عنـــدما دخلت عليها ، ولـكنها فتحت عينيها وهتفت :
ـ انتى اشم قهوة. آه. آه ! يا للزوج الحبيب! وازهارايضا !
ثم افطرنا وشربنا القهوة مرتين ، ومارى متكئة على وســـادة فى الفراش وقد بدت اكثر نضرة وبراءة من ابنتها .
وعندما حان الوقت الذى قدرته مناسبا قلت لها :
ـ استعدى للمفاجأة . عندى أخبـــار محزنة ومفرحة .
ـ هل اشتريت المحيط ؟ ..
ـ ان مارولو ضبط بتهمة دخول البلاد بطريقة غير شرعية ، وسيقومون بترحيله .
ـ هذا شنيع ! ماذا ستفعل . ماذا ستفعل انت ؟ ..
ـ انتهى وقت اللعب . انه باعنى المحل ـ أو بالأحرى باعه لك. فهو مالك على كل حال . وسيقوم بنقل الملـكية الي ، لانه يودنى. والواقع انه باعنى المحل نظير ـ ثلاثة آلاف دولار .
ـ يعنى ... يعنى ان المحل ملـكك الآن ؟ ..
ـ نعم .
ـ ولم تعد بائعا ! . . لم تعد بائعا ! ..

وانكفأت بوجهها على الوسادة وانخرطت فى بكاء من أعماق صدرها، كبكاء عبد رقيق قطعوا الطوق من حول رقبته .

تركتها وخرجت الى الساحة وجلست فى الشمس الى ان تمالكت مارى وغسلت وجهها ومشطت شعرها وارتدت ملابسها ونادتنى .

لقد بدت الآن مختلفة تماما . كانت رافعة الرأس شامخة . ولا عجب ، فقد أصبحنا من الأشراف مرة أخرى .

ـ الا يمكن أن نفعل شيئا لمساعدة مستر مارولو ؟ ..

ـ لايمكن .

ـ كيف حدث هذا ؟ .. من اكتشف أمره ؟ ..

ـ لا أعرف .

ـ انه رجل طيب . ما كان يجب أن يفعلوا معه هذا . كيف كان مسلكه ؟ ..

ـ احتمل بكرامة وشرف .

وتمشينا على الشاطىء كما كنا نفكر أن نفعل ، وجلسنا بين الرمال ، والتقطنا الأصداف الصغيرة البراقة وأراها كل منا لصاحبه، وأبدينا اعجابنا بالطبيعة من بحر وهواء ، وضياء وشمس لطفت من حدتها الريح ـ وكأن الطبيعة كانت تستمع الى اطرائنا .

ولكن مارى بدت مشغولة البال . وأحسبها كانت تريد العودة فى وضعها الجديد لكى ترى النظرة المختلفة فى أعين النساء ، والنبرات المتغيرة للتحيات فى شارع « هاى » . فهى لم تعد « مارى هاولى المسكينة ، التى تقوم بأعمال شاقة فى البيت» . لقد أصبحت مسز ايشان هاولى ، وسوف تظل كذلك على الدوام .

ومع ذلك فقد بقيت طول اليوم لأن ثمنه مدفوع . وتناولنا الغداء فى القاعة العامة ، وكانت حركاتها الرصينة ووقارها العادى شيئا خيب آمال صاحب النزل الذى كان أكثر انتعاشا بقدوم العشاق. وكانت خيبة أمله أشد عندما دنا من مائدتنا قائلا : ان هناك مكالمة تليفونية لمسز هاولى . فقلت لمارى :

ـ من يعرف اننا هنا ؟ ..

ـ مارجى بالطبع . اننى قلت لها من أجل الأولاد . آه ! يارب لايكون الآن ... أنت تعرف انه متسرع ! ..

وعادت وهى ترتعش قائلة :

ـ هل سمعت الخبر ؟ .. هل سمعت الراديو ؟ ..

ـ هل يمكنك أن تخبرينى بسرعة ؟ ..

ـ ان الآن فاز فى المسابقة ، ونال جائزة التفوق ، وسـاعة ، سوف يظهر فى التليفزيون ... هل يمكن أن تصدق هـذا ؟.. شخصية مشهورة فى العائلة ! ..

ـ لايمكن أن أصدق هذا ! ..

ـ بل صدق ! تصور ان ابننا واحد من خمسة أولاد فى الولايات المتحدة كلها ينال جائزة التفوق ، ويظهر فى التليفزيون ! ..

ـ وساعة أيضا ! ترى هل يمكنه أن يعرف الوقت ؟ ..

ـ ايثان ! اذا كنت تهزل هكذا ، فسوف يظن الناس انك غيور من ابنك ! ..

ـ هذا من تأثير الدهشة فقط . كنت اظن ان اسلوبه فى الكتابة مثل مستوى أسلوب الجنرال ايرنهاور ! .. ان الآن ليس عنده شيطان الوحى ! ..

ـ أنا أعرفك يا ايثان . انك تحب دائما أن تتحامل على أولادك. لكنك انت الذى تفسدهم . أريد أن أعرف ـ هل ساعدته فى كتابة موضوع المسابقة ؟ ..

ـ ساعدته ؟ انه لم يدعنى حتى أراه ! وما هو شعور ايلين ؟

ـ انها فخورة مختالة مثـل طـاووس ! وكانت مارجى منفعلة متحمسة لدرجة انها كادت لا تستطيع الـكلام . ان الجرائد تريد كل أحاديث معه ـ والتليفزيون . انه سيظهر فى التليفزيون . هل تذكرت انه ليس عندنا جهاز تليفزيون لـكى نشاهده ؟ ..

ـ سيكون لنا جهاز غدا .

ـ صحيح يا ايثان ؟ .. نسيت انك الآن صاحب المحل . لابد لنا أن نعود الآن . انهم سيعودون بقطار الساعة السابعة والثلث. يجب أن نـكون فى البيت لاستقباله .

واطرقت مارى برأسها برهة كأنما تصلى ، وقالت :

ـ انت تملك المحل ، والآن اصبح شخصية مشـهورة . من ان يصدق ان كل هذا يمكن أن يحدث مرة واحدة . يجب أن نكون هناك عند وصولهم. اذهب لدفع الحساب بينما أحزم أدواتنا.

الفصل التاسع عشر

سلك ابني مسلكا متزنا . كان هادئا ولينا معنا . فلم يطلب ثارا ، ولم يأمر باعدام . وانما تقبل التكريم الذى ظفر به ، والتهانى التى ازجيناها اليه قبول من يعتبر ان هذا حق له ، دون ما غرور ، وكذلك فى غير ما تواضع متكلف . وما لبث ان تقدم الى مقعده فى غرفة الجلوس وادار جهازه الاذاعى الصغير قبلما تم اشتغال كل « الصواريخ » المائة التى اوقدناها احتفاء بفوزه فى المسابقة الوطنية الكبرى . ولقد بدا واضحا انه اغتفر لنا كل مضايقاتنا وتدخلاتنا وتطفلاتنا . والحق اننى لم اشهد فى حياتى ابنا يتقبل العظمة بمثل هذه السماحة .

كانت هذه ليلة العجائب حقا . واذا كان صعود الآلان السهل الى السماء باعثا على الدهشة ، فان رد الفعل من جانب ايلين كان أبعث على الدهشة والعجب . كنت اظن من دراستى لأطوارها عن كثب انها سوف تبتسلم لدواعى الغيرة والحسد ، ولكنها خيبت ظنونى ، اذ كانت هى المحتفية الأولى بفوز اخيها ، وكانت هى التى حكت لنا القصة وقالت انهم بينما كانوا جلوسا فى شقة انيقة فى الشارع السابع والستين بعد امسية ساحرة ، وهم يشاهدون التليفزيون ، واذا نبأ فوز آلان يذاع فى نشرة الأخبار . والواقع ان ايلين كانت هى التى اخذت تسهب فى وصف ما اعقب ذلك من فرحة غامرة وانفعالات باهرة ، فى حين جلس آلان وهى تحكى هذا صامتا هادئا ، خصوصا عندما شرحت لنا كيف انه سوف يظهر فى التليفزيون مع الأربعة الفائزين الآخرين ويقرأ موضوعه الفائز ، بينما يسمعهم ويشاهدهم الملايين من المواطنين . وفى خلال ذلك كانت مارى سعيدة قريرة العين لا تنفك عن الاطراء والتحدث بالنعمة ، ولكننى عندما نظرت الى ناحية مارجى الفيتها واجمة ومنطوية على نفسها شيئا ما ، كما فعلت يوم قراءتها للطالع ، ولم تلبث ان استأذنت فى الانصراف رغم الحاحنا عليها فى البقاء .

وقالت مارى على الأثر :

ـ اننا لم نخبرها بموضوع المحل .
ـ دعى ذلك الآن . لا نريد أن نسلب « صـــاحب الفخامة » حقه الـكامل فى الاستئثار بالليلة لنفسه . اين ايلين ؟ ..
ـ انها ذهبت للنوم . وهذا بعد نظر منها . وانت يا آلان . هذا يوم عظيم لك ولنا . الا ترى الآن ان الوقت قد حان للنوم؟
فأجاب آلان متعطفا : اظن اننى ساجلس هنا فترة .
ـ لـكنك محتاج الى الراحة . فنحن الآن فى منتصف الليل .
ـ انا مرتاح هكذا .
ولمـــا استنجدت بى مارى قلت لها :
ـ ليكن ما يريد ياعزيزتى . انه سوف ينام حتى الظهر غدا . اما انت وانا فعلينا أن نستيقظ فى الساعة السادسة .
وكانت مارى أول النائمين . وبعد نصف ساعة سمعت صرير درجات السلالم ، فعلمت ان ابننا المشهور قد صعد للنوم .
وبينما كنت اراقب البقع الحمراء وهى تتراقص امام عينى فى الظلام ، سمعت ايلين وهى تتسلل هابطة السلالم فلم اتبعها هـــذه المرة ، اذ سمعت بعد قليل صرير المفتاح فى قفل الدولاب ، وعلمت أن ابنتى عادت مرة أخرى الى ضم « الحجر السحرى» الى صدرها لـكى يعطيها شحنة عاطفية .

***

ذهبت الى المحل فى الصباح مبكرا . وقد فتحت مظروف البنك الذى اعطانيه مستر بيكر وأخرجت منه ثلاثين ورقة بنكنوت من فئة المائة دولار وتركت العشرين ورقة الباقية . ان الثلاثة الآلاف دولار سوف تكون رصيد الأمان لـكى أتمكن من موازنة اقتصاديات المحل . اما الالفا دولار الباقية فساعيدها الى حســـاب مارى فى البنك ، على ان اعيد الثلاثة الآلاف بعد استقرار الأعمال . وقد وضعت مبلغ الثلاثة الآلاف دولار فى المحفظـــة الجديدة حتى بدت منتفخة فى جيبى الخلفى . وانتقلت بعد ذلك الى المخزن حيث جئت منه بصناديق المعلبات وفتحتها واخذت اكدسها فى الأرفف الخاوية، بينما دونت فى ورقة كافة السلع التى كان على أن اطلبها .
ولابد ان السنين تختلف بعضها عن بعض فى المناخ وفى «المزاج» مثلما تختلف الأيام ايضا . فقد كان عام ١٩٦٠ هذا عام التغيير ـ العام الذى طفت فيه المخاوف المـكنونة الى السطح ، ولم يعـد السخط خامدا بل أخذ يتغير تدريجا مستحيلا الى غضب . ان

هذا الذى وصفت لم يكن احساسى انا فقط ولا احساس «بايتاون» ايضا ، بل كان الطابع القومى العام . فعن قريب سوف تعلن الترشيحات لانتخابات الرئاسة ، وبدا الجو كله مشحونا بسخط يوشك ان يتحول الى غضب بما يجلبه الغضب من انفعالات . بل لم يكن هذا حال الأمة الأمريكية وحدها ، فقد كان العالم كله يضطرب بالقلق والتوتر وعدم الاستقرار كلما تطور السخط الى غضب وبدا الغضب يلتمس متنفسا له فى العمل ـ اى عمل طالما كان طابعه العنف . كانت افريقيا وامريكا الجنوبية واوربا وآسيا والشرق الأوسط كلها مباءات للقلق والتوتر وعدم الاستقرار مثل خيل السباق عندما تقف لدى الحاجز متحفزة للانطلاق

ولقد كنت على يقين ان يوم الثلاثاء هذا الخامس من شهر يوليو سوف يكون يوما مشهودا اكثر من سائر الأيام ، وكان احساسى يحدثنى بأنه ستقع فيه احداث غير عادية ، وكان منها على سبيل المثال ماحدث من حضور مستر بيكر الى البنك قبل موعده بساعة. فقد طرق على باب المحل الأمامى قبل أن أفتح للعمل ، فادخلته واغلقت الأبواب . وقال من فوره :

ـ يا للشناعة ! .. اننى كنت معزولا عن العالم . وقد عدت حالما سمعت .

ـ أية شناعة تقصد ياسيدى ؟ ..

ـ عجبا ! اقصد الفضيحة ! ان هؤلاء الرجال هم أصدقائى ، اصدقائى القدماء . لابد لى ان افعل شيئا .

ـ انهم لن يستجوبوا قبل الانتخابات ـ لقد وجهت اليهم الاتهامات فقط .

ـ اعرف هذا . الا يمكن ان نصدر بيانا عن اعتقادنا فى براءتهم ؟ ولو اعلانا مدفوع الأجر اذا لزم الأمر .

ـ فى اى جريدة ياسيدى ؟ ان جريدتنا لن تصدر قبل يوم الخميس .

ـ على اى حال لابد من عمل شىء .

ـ صدقنى يا سيدى .

كان هذا الكلام اقرب الى الشكليات . ومع ذلك فقد بدا مشحونا بالقلق حقا . وعاد يقول :

ـ ان الجماعة المتطرفة المجنونة سوف تفسد الانتخابات البلدية ما لم نفعل شيئا . لابد لنا من تقديم مرشحين جدد . ان ماحدث

لأصدقائنا شيء بشع ، لكنهم أول من يعرف اننا لن ندع الجماعة المتطرفة تسيطر على الأمور .

ـ انهم فى غم وحزن . ولم يجدوا وقتا للتفكير والتدبر . هل جاء مارولو ؟ ..

ـ انه أرسل صديقا . وقد اشتريت المحل بثلاثة آلاف دولار.

ـ هذه صفقة . من أرسله عنه ؟ المافيا ؟

ـ مندوب الحكومة الاتحادية . وبدا ان مارولو كان يودنى . ورايته يقطب فجاة مفكرا ، ثم قال :

ـ لماذا لم افكر فى هذا ؟ انه الرجل المطلوب . من اسرة طيبة ، واهل للثقة ، ومن الملاك ورجال الأعمال ، وشخصية محترمة ، وليس لك عدو فى البلدة . لاشك انك انت الرجل المطلوب .

ـ أى رجـــل ؟ ..

ـ ادارى البـــلدة .

ـ اننى لم أكن من رجال الأعمال الا منذ يوم السبت .

ـ انت تعرف ما اقصد . يمكننا ان نجمع حول شخصـــك وجوها جديدة محترمة .

ـ من بائع فى محل بقالة الى ادارى البلدة ؟ ..

ـ لم يفكر أحدقط أن يكون سليل اسرة هاولى بائعا فى محل بقالة.

ـ كان هذا تفكيرى ، وتفكير مارى .

ـ لكنك لست كذلك . يمكننا اعلان هذا الاختيار اليوم قبل أن تقرر الجماعة المتطرفة المجنونة قرارها . اننى انصحك يا ايشان أن تبيع المحل . سوف تكون شخصية كبيرة القدر بما لايسمح بأن تقف لخدمة « الزبائن » . ألم تسمع شيئا عن دانى ؟

ـ لا حتى الآن .

ـ ما كان يجب أن تعطيه نقودا .

ـ ربما . كنت اظن اننى اعمل لصالحه . قل لى يامستر بيكر. ما الذى حدث للسفينة « بيل آدير » ؟ ..

ـ ما الذى حدث ؟ .. انها احترقت وغرقت فى الميناء .

ـ كيف حدث هـذا ياسيـدى ؟ ..

ـ غريب ان تسأل فى هذا الوقت !.. انا لا أعرف الا ماسمعته. كنت وقتها صغيرا ولا اتذكر . ان تلك السفن العتيقة كانت مشبعة بالزيوت . ولابد ان واحدا من البحارة القى عود ثقاب . وكان جدك الكابتن هاولى هو الربان. واظن انه كان وقتها على الشاطىء.

ـ وهل وجدت مشكلة بخصوص التامين ؟ ..
ـ ان شركات التامين ترسل عادة محققين من جانبها . ولكن بعد وقت حصلنا على مبلغ التامين . اسرة هاولى وأسرة بيكر .
ـ كان جدى يظن ان النار اضرمت فى السفينة عمدا .
ـ ولماذا ، بحق السماء ؟ ..
ـ الحصول على قيمة التامين . فان صناعة صيد الحيتان واستخراج زيوتها كان قد فات اوانها .
ـ لماذا تنبش هذه الأشياء القديمة يا ايشان ؟ لقد حدثت منذ زمن طويل .
ـ من البشاعة حرق سفينة ، انها كجريمة قتل . اننى ساعمل على انتشال قاعها من البحر يوما ما . اننى اعرف مكانه . على مسافة نصف كابل بحرى من الشاطىء .
ـ ولماذا تفعل هذا بالله ؟ ..
ـ لكى ابحث ان كان ماحدث لم يكن مدبرا . على كل يحسن ان تذهب الآن الى البنك لكى تبارك فتح الخزانة . واريد انا ان افتح المحل ايضا .
ولم يكد بيكر ينصرف حتى جاء بيجارز ايضا . ولابد ان المسكين كان يراقب فى الخارج وينتظر انصراف بيكر . وقد بادرنى على الفور قائلا :
ـ هل فكرت فى اقتراحى ؟ ..
ـ اظن ان ستة فى المائة احسن .
ـ لا أعرف ان كانت ادارة محلات « ب . ب » سوف تقبل .
ـ المسألة متروكة لها .
ـ ربما يوافقون على خمسة ونصف فى المائة .
ـ وربما تدفع انت النصف فى المائة الباقى .
ـ يا لطيف ! كنت اظنك ساذجا . هل يمكن ان اخذ « الطلبية » الكاملة اليوم ؟ ..
ـ غدا افضل و « طلبية » اكبر .
ـ ماهذا ؟ لابد انك امسكت رئيسك من عنقه ! هل تظن ان هذا فى قدرتك ؟ ..
ـ انتظر غدا لترى .

***

كانت حركة العمل خفيفة يوم الثلاثاء وهذا بالمقارنة بيوم السبت

الماضى . فقد اخذ الناس مهلة كى يتكلموا عن « الفضيحة » ، قالوا انها بشعة ، محزنة ، مخزية ، ولكن مسلية ايضا . والحق انهم لم يلبسوا فضيحة منذ مدة طويلة . ولم يكن اهتمامهم موجها الى المنافسات الانتخابية فى البلاد عامة بقدر ماكان مركزا فى « فيوباليون » لمعرفتهم بالرجال الذين راحوا يرقصون فوق قبورهم .

وحوالى الظهر جاءنى ستونى سميث رئيس نقطة الشرطة وكان يبدو متعبا محزونا . وقد أخرجت المسدس القديم من علبة الزيت وقدمته له قائلا :

ـ خذه بعيدا عنى . انه يثير اعصابى .

ـ امسحه أولا . انه سلاح قديم يطل استعماله . قل لى ، هل عندك أحد يمكن يحل محلك هنا ؟ ..

ـ لا ..

ـ أين مارولو ؟ ..

ـ خارج البلدة .

ـ اظن انه لابد أن تغلق المحل بعض الوقت .

ـ لماذا ؟ ..

ـ نريد ان نذهب معنا الى الأرض المملوكة لدانى تيلور والتى كان فيها قصر العائلة القديم قبل أن يتهدم .

ـ دانى تيلور ؟ .. ماذا جرى ؟ ..

ـ يؤسفنى أن أقول اننا عثرنا فى بدروم المنزل على صندوق ويسكى فيه زجاجتان فقط خاليتان ، وزجاجة حبوب منومة . والظاهر انه بقى فى هذا المكان المهجور مدة طويلة وتعرض وجهه للنهش ـ ربما من القطط . هل تعرف علامات فى جسده يمكن بها أن تتعرف عليه ؟ ..

ـ لا اريد ان انظر اليه .

ـ ومن يريد ؟ هل تعرف علامات ؟ ..

ـ اتذكر وجود اثر جرح من اسلاك شائكة فوق ركبته اليسرى . ووشم قلب مثل هذا ، احدثناه ونحن صبيان بشفرة حلاقة وصبغناه بالحبر .. ان الوشم لايزال ثابتا عندى ، كما ترى .

ـ هل من علامات أخرى ؟ ..

ـ نعم . هناك ايضا اثر جرح كبير تحت ذراعه اليسرى .

ـ اظن ان هذه كلها علامات كافية . ولا اظن اننا سنحتاج الى الذهاب . سندع المحقق يتأكد بنفسه . وسيكون عليك أن تؤدى

الشهادة عن هذه الجروح اذا كان هو داني تيلور .
ـ ليكن . لكن لاتدعني أراه ياستوني . انه كان ... انه كان صديقي ، كما تعرف .
ـ بالتاكيد . قل لي يا ايثان . هل صحيح ما سمعته عن ترشيحك لوظيفة ادارى البلدة ؟ ..
ـ هذا خبر جديد في سمعي . هل يمكنك أن تبقى هنا دقيقتين، ريثما أعبر الشارع وآتي بشراب ؟ ..
ـ آه ! انت معذور . اذهب بسرعة . لابد أن أجارى ادارى البلدة الجديد .
وجئت بالشراب . وعندما انصرف ستوني وضعت لافتة على المحل كتبت فيها « مغلق حتى الساعة الثانية » ، ثم اغلقت الأبواب وأسدلت الستائر .
وجلست في محلي الجديد ، حليف وحدة موحشة تعتصر قلبي .

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الفصل العشرون

في الساعة الثالثة الا عشر دقائق خرجت من باب المحل الخلفي ودرت حول الناصية ودخلت البنك من الباب الأمامي . ولما رآني جومورفي تطلع الى بتحفظ قائلا :

ـ لكن أتكلم عن دائي يا ايثان . أنا أعرف انه كان صديقك الحميم .

ـ شكرا .

وعندما رآني مستر بيكر قال لي بهدوء :

ـ هل تخلو لحظة يا ايثان ؟ ..

لم أجد فائدة من تأجيل المواجهة ، فدخلت الى مكتبه. وأغلق الباب . وبعد أن جلست قال لي :

ـ حادث محزن .

ـ نعم .

ـ أنا متأكد انك كنت تنوي الخير بالنسبة له .

ـ كنت اظن انه سوف يستفيد من الفرصة

ـ بصرف النظر عن المأساة والخسارة ، هناك مشكلة . هل تعرف ان كان له أقارب ؟ ..

ـ لا اظن .

ـ كل انسان عنده مال يكون له أقارب .

ـ لم يكن عنده مال .

ـ كان عنده الأرض الواسعة المتبقية من بيت أسرته المحترق .

ـ أحقا ؟ .. أرض فضاء خربة وبدروم كالقبر ! ..

ـ اسمع يا ايثان . قلت لك من قبل اننا نخطط لاقامة مطار يخدم الاقليم كله . ان الأرض الفضاء مستوية السطح . واذا نحن لم ننتفع بها فسوف نتكلف الملايين لتمهيد مدارج للمطار بين التلال . وحتى لو لم يكن له ورثة ، فسوف تنتقل المسألة الى المحاكم ، وتضيع شهور .

ـ مفهوم . يحسن الآن أن أعود الى المحل .

ـ هو محلك الآن .
ـ أحقا ؟ نسيت . انني أعود على هذا بصعوبة .
ـ نعم . تنسى . ان النقود التى أعطيتها له كانت نقود مارى. انها لن تراها بعد الآن . انك بعثرتها .
ـ كان دانى يود مارى . وكان يعرف ان النقود لها .
ـ ويكفيها هذا فخرا !
ـ انه فعل شيئا حسبته مزاحا . انه أعطانى هاتين الورقتين. وابرزت من جيبى الداخلى الورقتين المشهد عليهما ، وكنت أعرف اننى سأبرزهما يوما على هذه الصورة .
بسط مستر بيكر الورقتين فوق مكتبه ونظر اليهما . رايت عضلات اذنيه تختلج وهو يقرأ . وبعد أن أعاد القراءة وتطلع الى ، رايت الخوف باديا فى هيأته . لقد رأى أمامه شخصا لم يكن يشعر بوجوده . ومضت فترة قبلما استطاع أن يتمالك ويتوازن ، فقال بلهجة واقعية :
ـ ما هو الثمن الذى تطلبه ؟ ..
ـ واحد وخمسون فى المائة .
ـ من ماذا ؟ ..
ـ من الهيئة التى ستقوم بمشروع المطار ، أو الشركة ، أو سمها ما شئت .
ـ هذا مضحك .
ـ انت تريد مطارا ، والمطار الوحيد الصالح ملكى .
راح يمسح زجاج نظارته . ونظر الى كل مكان حوله الا نحوى. وأخيرا قال :
ـ هل تدبرت ما تفعله الآن يا ايشان ؟ ..
ـ نعم .
ـ وهل تشعر انك تفعل شيئا طيبا ؟ ..
ـ أظن ان شعورى كشعور الرجل الذى قدم له زجاجة ويسكى وحاول استدراجه لتوقيع الورقة .
ـ هل أخبرك بهذا ؟ ..
ـ نعم .
ـ انه كذاب .
ـ ربما . وربما كانت هذه الأوراق زائفة .
وسحبتهما من أمامه برفق وطويتهما واعدتهما الى جيبى فقال :

ـ هذه الوثيقة قانونية ، مؤرخة ، ومشهد عليها ، وواضحة . ربما كانت نيته ان يعطيك درسا اخلاقيا فى التضحية والايثار.
ـ يامستر بيكر . لم يوجد فى اسرتى احد حرق سفينة ! ..
ـ سوف نتكلم يا ايثان . سوف نقوم بأعمال . سوف نكون اموالا . ان بلدة نامية سوف تثب الى العمران من حول الأرض الفضاء الخربة . اظن انه لابد لك الآن ان تصبح اداري البلدة .
ـ لايمكننى ياسيدى . ان هذا سوف يشكل تضاربا فى المصالح. اناسا محزونين الآن قد اكتشفوا هذا بعد فوات الأوان .
تنهد ، وكأنما خشى ان يثير كلامى شيئا يعتلج فى صدره. ولم البث ان نهضت ووضعت يدى على مسند المقعد وقلت له :
ـ سوف تكون احسن حالا ياسيدى عندما تعتاد على الحقيقة الواقعة ، وهى اننى لست مغفلا ساذجا يسهل ابتلاعه .
ـ لمـــاذا لم تشركنى فى اسرارك ؟ ..
ـ ان شريك الخفاء فى خطر .
ـ اذن تشعر انك ارتـكبت جريمة .
ـ لا . ان الجريمة هى التى ارتكبها غيرى . لابد لى الآن من فتح المحل ، حتى ولو كان محلى الخاص .
وكانت يدى على مقبض الباب عندما سألنى :
ـ من وشى بمارولو ؟ ..
ـ اظنك انت ياســـيدى .
فوثب على قدميه ، بيد اننى اغلقت الباب خلفى وعدت الى محلى

الفصل الحادى والعشرون

كان بيت هاولى متلألأ بالأنوار والزخارف عندما عدت . وعرفت ان المناسبة هى الاحتفاء بفوز آلان فى المسابقة القومية واعداد عشاء عائلى خاص لهذه المناسبة الفذة .

وعندما مررت بغرفة آلان وفتحت الباب وجـــدته واقفا امام المرآة وقد اصطنع شاربا اسود صغيرا من الأصباغ ولبس ربطـة عنق المنقطة . ولـكنه ارتبك عند دخولى وقال معتذرا :

ــ اننى أتمرن على الدور .

ــ الحقيقة يابنى اننى فى غمرة الفرح نسيت ان اقول كم انا فخور بك .

ــ هى ... هى مجرد بداية .

ــ بصراحة ، لم أكن أظن انك كاتب قدير مثل رئيس الجمهورية. اننى فى الحقيقة مندهش بقدر ما انا مسرور. متى ستقرأ موضوعك امام العالم ؟ ..

ــ يوم الأحد ، السـاعة الرابعة والنصف . وسـأذهب الى نيويورك . ستقوم طائرة خاصة بنقلى .

ــ حسنا . هى قفزة كبيرة فعلا اذ تكون واحدا من خمسـة فى البلاد كلها .

وبدا يزيل الشارب . ورايته والدهشة تأخذ بمجامعى أن معه مجموعة كاملة من أدوات الماكياج .

قلت له : حـــدث كل شىء لنا مرة واحدة . هل تعرف اننى اشتريت المحل ؟ ..

ــ نعم . سمعت .

ــ حسنا . عندما تنتهى الضجة ساحتاج الى مساعدتك .

ــ ما قصدك ؟ ..

ــ قلت لك قبل الآن . لـكى تساعدنى فى المحل .

ــ لايمكننى أن أفعل هـــذا .

ــ لايمكنك ماذا ؟ !

ـ عندى مواعيد لأحاديث اذاعية وتليفزيونية متعددة . وهناك مسابقة « فوازير » جديدة ساشترك فيها . وهكذا ترى اننى مشغول وليس عندى وقت .

ورش رأسه بسائل من مضخة شعر . فقلت له :

ـ اذن فقد جددت لنفسك المستقبل ، أليس كذلك ؟ ..

ـ هى مجرد بداية ، كما قلت لك .

ـ لا أنوى أن أطلق كلاب الحرب هذه الليلة . سوف ننتافش فى هذا فيما بعد .

ـ هناك شخص من محطة اذاعة «ن.ب.س» حاول أن يتصل بك تليفونيا . ربما كانت المسألة متعلقة بعقد يريدون عمله معى ، لاننى دون سن الرشد .

ـ هل فكرت فى المدرسة ياولدى ؟ ..

ـ ومن يحتاج الى المدرسة اذا كان أمامه عقد ؟ ..

اسرعت بالخروج واغلقت الباب خلفى ، وفى الحمام اسرفت فى انزال الماء البارد على جسدى لكى أكبح جماح غضبى الجائح . وعندما خرجت نظيفا لامعا متألقا متعطرا بعطر مارى عادت الى سيطرتى على أعصابى .

وجلسنا الى الوليمة التى كانت حافلة بالدجاج المشوى والفطائر . وقد طلبت أن نشرب نخب « البطل » متمنيا له الحظ السعيد ، واختتمت مرددا :

« وبعد شتاء أحزاننا الذى اكفهر واستطال
جاء الآن صيفنا المشرق بعراض الآمال »

فقالت ايلين : هذا كلام شكسبير .

ـ نعم . لكن من اية مسرحية ؟ .. ومن القائل ؟ .. وفى اية مناسبة ؟ ..

فلم يرد أحد .

وبعد أن ساعدت فى نقل الأطباق الى المطبخ قالت مارى التى كانت لاتزال تحت تأثير النشوة بعد أن لاحظت ضيق الكامن :

ـ لا تضايق نفسك . سيعرف كل شىء فى وقته . أرجو أن تكون صبورا معه .

ثم اضافت بعد برهة :

ـ هناك رجل اتصل بك من نيويورك . اظن ان المسألة بخصوص

الان . أليس من المثير انهم سيرسلون اليه طائرة خاصة . اننى لا اكاد اصدق انك الآن مالك المحل . والجميع يتكلمون عن قرب اختيارك ادارى البلدة .

ـ لن يكون هذا . امامى مشروع اعمال سيجعل هذا مستحيلا. انا مضطر للخروج الآن ياحبيبتى . عندى اجتماع .

ـ ربما يجعلنى هذا اتمنى عودتك بائعا فى المحل . كنت وقتها تبقى فى البيت كل ليلة . ماذا نقول للرجل اذا جاء مرة ثانية ؟..

ـ يمكنه أن ينتظر .

ـ انه لم يقبل هذا . هل سيتأخر ؟ ..

ـ لا اعرف . المسألة تتوقف على الظروف .

ـ خذ معك معطف المطر .

ـ بالتأكيد .

لبست قبعتى وخرجت الى الليل المظلم . كنت اريد الميناء القديم و « المختلى » . فيهما عالم خاص اعيد فيه بين الموج والمد ترتيب افكارى واسوى شعث نفسى . وفى الطريق رأيت الشرطى ويلى جالسا فى سيارته فى دوريته الليلية ، وما أن مررت به حتى بادرنى قائلا :

ـ اسمع يا ايث . هناك شخص كان يبحث عنك . شخص فى سيارة كريزلر كبيرة لها سائق خاص .

ـ وما الذى يريده ؟ ..

ـ لا اعرف . سألنى ان كنت شاهدتك . فلم اقل له شيئا .

ـ انت تستحق هدية ياويلى .

ـ اذا رأيت هذا الشخص، فهل اقول له انك ستعود الى البيت؟

ـ قل له ان يأتى الى المحل غدا .

ـ «كريزلر امبريال» ، ابن اللئام ! طويلة فى مثل اللورى ! وصادفت جو مورفى واقفا على الرصيف أمام مطعم ومقهى فورماستر ، ينظر حوله مترددا متحيرا . فقلت له :

ـ فكرت انك ستذهب الى نيويورك لأخذ زجاجة مثلجة .

ـ الجو خانق ، ولم يساعدنى قلبى على ذلك . تعال ندخل ونشرب يا ايثان . اننى أشعر بغم .

ـ الجو خانق لايساعدنا كما قلت .

ـ يا للنحس ! اذا ركب الانسان ، فلا مكان يذهب اليه ، ولا صديق يجالسه ! ...

ـ يجدر بك ان تتزوج .
ـ وهنا بصحبة الانيس والجليس ! ..
ـ ربما كنت على حق .
ـ بل على حق كل الحق . ليس فى الدنيا من يعانى الوحدة اكثر من المتزوج ! ..
ـ وكيف تعرف ؟ ..
ـ اننى اراقبهم . وامامى واحد منهم . ليس امامى اذن من جليس سوى ساقى البار. سوف اسرد فى سمعه الحلقات الكئيبة لحياة اعزب ضائع . ولن يمنحنى سمعه الا بحساب ـ او بالحساب! الى اللقاء يا ايثان . اذهب فى رعاية الله . هـــذا ما يقولونه فى المـــكسيك ! ..

ولم اكد ابتعد حتى لمحت السيارة الـكريزلر تنعطف وتقف عند ناصية بيت هاولى القديم ـ اى بيتى ـ وكان شكلها اقرب الى عربة الموتى منه الى سيارة لورى . كانت سوداء ولـكن بغير لمعان بسبب قطرات المطر ورشاش الشحوم المتطاير من الطرقات .

عدت ادراجى ويممت شطر سيارة . فرأيت رجلا بقبعة ســائق من خلال الزجاج الأمامى . وعندما نقرت بأصـــابعى على الزجاج انحدر زجاج النافذة بحركة كهربائية ، وشعرت بلفح تكييف هواء يهب على وجهى .

قلت : انا ايثان هاولى . هل تبحث عنى ؟ ..

وعلى الأثر انفتح باب السيارة تلقائيا وخرج رجل نحيل انيق الثياب ، وقال لى :

ـ انا دانسكومب ، مندوب تليغزيون بروك وشوين . أريد ان اتـكلم معك .

ونظر الى ناحية السائق واردف :

ـ ليس هنا . هل يمكن ان ندخل ؟ ..

ـ اظن . اعتقد ان الجميع ناموا . واذا تكلمت بهدوء ...

وسرنا فى الممشى الحجرى بين الحشائش المبتلة . وكان الضوء الليلى ينبعث من الصالة . ولما دخلنا اضأت نور مصـــباح القراءة فوق المقعد الـكبير الخاص بى .

كان السكون يسود ارجاء البيت ، ولـكنه بدا لى سكونا غير طبيعى ، مشوبا بالتوتر .

قلت له :

ـ لابد ان المسألة هامة حتى تحضر فى هذا الوقت المتأخر .

ـ هو هذا . اننا نريد أن نبقى هذه المسألة محصورة بيننا . ان هذه السنة كانت سنة عصيبة كما تعرف ، خصوصا بعد فضائح « الفوازير » وغيرها وما اقترن بها من تحقيقات لجان الكونجرس. لابد لنا الآن ان نراقب كل شىء . هذه أوقات خطرة .

ـ يودى أن تقول لى ماذا تريد ؟ ..

ـ هل قرأت الموضـــوع الذى كتبه ابنك فى مســـابقة « احب امريكا ؟ .. »

ـ لا . لم اقراه . انه أراد ان يفاجئنى .

ـ وهذا ما فعله. ولاأعرف كيف لم نضبطه ، ولكن هذا ماحدث.

ويبسط لعامى ملفا أزرق الغلاف وأردف :

ـ اقرأ ما تحته خطوط .

جلست فى المقعد وفتحت الملف . كانت الـكتابة مطبوعة بآلة كاتبة شبيهة بحروف المطبعة . وقرأت ما يلى :

« احب امريكا »

« بقلم الان ايشان هاولى »

« ما هو الانســـان الفرد ؟ ذرة ، تكاد لا ترى بغير عدســـة »
« مكيرة ـ مجرد نقطة فوق سطح الـكون . لا حساب . له »
« فى الزمن ولو قدر ثانية بالقياس الى الأبدية التى لا بـــداية »
« لها ولا نهاية لها ولا حصر لها ، قطرة من ماء فى الأعمـــاق »
« المظلمى تتبخر وتبددها الرياح ، ذرة من رمل سرعان ماتندمج »
« فى التراب الذى منه نجمت . فهل كائن بمثل هذا الصغر »
« وهذه الضآلة وهذا التلاشى وهـــذا الزوال يمكن أن يعوق »
« الزحف الدائب لأمة عظمى هى باقية على مدار أجيال وأجيال »
« قادمة ، ويقف فى وجه كل تسلسل ممتد من الذرارى المنبثقة »
« من اصلابنا وسوف يدوم ما دامت الدنيا ؟ فلنبذل لبلادنا كل »
« الرعاية والاهتمام ، ولنرتفع بأنفسنا الى مصـــاف الوطنيين »
« أولى العزة والنقاء والتجرد . ولندرأ عن وطننا كافة الأخطار »
« المحدقة المهددة . ما الذى نساويه ـ بل ما الذى يساويه أى »
« رجل ـ ان لم يكن على استعداد ولم ينبعث باقبال للتضحية »
« بنفسه فى سبيل بلاده ؟ .. »

رحت اقلب الصفحات ، فرأيت الخطوط المدونة بالقلم الرصاص شائعة فيها من أولها الى آخرها وقال لى الرجل :

ـ هل تعرف هذه الكتابة ؟ ..

ـ لا . انها تبدو مألوفة . كأنها من كتابة القرن الماضى .

ـ هى كذلك . هى خطبة قالها هنرى كلاى ، عام ١٨٥٠ .

ـ وباقى الكتابة ؟ كلها من كلام كلاى ؟ ..

ـ لا . هى مقتطفات متناثرة ، بعضها من دانييل ويبستر ، وبعضها من جيفرسون ، وبعضها من لنكولن . ولست أعرف كيف أجيز هذا كله . واعتقد انه بسبب الآلاف المؤلفة الواردة للمسابقة . الحمد لله اننا ضبطناها فى الوقت المناسب .

ـ لايبدو ان هذا اسلوب صبى .

ـ لا أعرف كيف حدث هذا . وكان يمكن ان يمر دون ان نلتفت اليه ، لو لم يصلنا البطاقة البريدية .

ـ بطاقة بريدية ؟ ..

ـ بطاقة بريدية مصورة ، بها صورة ناطحة السحاب « امباير ستيت بيلدنج ».

ـ من أرسلها ؟ ..

ـ شخص مجهول .

ـ ومن أين أرسلت ؟ ..

ـ من نيويورك .

ـ دعنى أنظر اليها .

ـ انها محفوظة تحت القفل احتمالا لاية مشاكل . انت لا تريد ان تقوم مشاكل ، أليس كذلك ؟ ..

ـ وماذا تريد ؟ ..

ـ أريد أن ننسى الموضوع كله . ونحن من جانبنا سوف نسقط الموضوع كله وننساه ، اذا رغبت .

ـ ليس هذا بالشىء الذى يمكن نسيانه بسهولة .

ـ أقصد انه مطلوب منك أن تقفل فمك ـ لا تسبب لنا اية مشاكل . انها كانت سنة سيئة . فى سنة الانتخابات يمكن أن ينبش أى انسان أى شىء .

اقفلت الملف واعدته اليه ، وقلت :

ـ لن أسبب لكم اية مشاكل .

فانفرج فمه عن أسنان لؤلؤية ناصعة ، وقال :
ـ كنت أعرف هذا . قلت لهم هذا . اننى تحريت عنك .
فوجدت سجلك طيبا . وانت من أسرة كريمة .
ـ هل يمكن ان تذهب الآن ؟ ..
ـ اننى أقدر مشاعرك .
ـ اشـــكرك .
ـ اننى لا أحب أن أذهب وانت غاضب. ان مهنتى هى العلاقات العامة . يمكننا الاتفاق على شىء ، مثل منحة دراسية ، أو شىء من هذا القبيل ـ شىء له احترامه .
ـ لا . اذهب عنا فقط ، من فضلك .
ـ سوف ندبر هذه المسألة .
وتركته ينصرف وعدت الى الجلوس واطفـــأت النور وجلست انصت الى البيت . كان يخفق مثل قلب ، ولعله كان قلبى أو صرير البيت العتيـــق . وبدا لى أن اذهب الى دولاب الأسرة واخرج «تعويذة الحظ» لأضعها فى يدى ـ بل وقفت لكى أفعل هذا.
دلفت الى غرفة ايلين واضأت النور . وجـــدتها مكورة تحت الغطاء ورأسها تحت الوسادة . ولمـــا حاولت رفع الوسادة تشبثت بها حتى اضطررت لنزعها عنوة . فرأيت خيطا من الدم يســـيل من زاوية فمها .
قالت : انزلقت فى الحمام .
ـ ظاهر . هل اصابتك شـــــديدة ؟ ..
ـ لا اظن .
ـ بكلمات اخرى ، ليس هـــــذا من شأنى .
ـ اننى لا أريد ان يأخذوه الى السجن ! ..
ووجدت الآن جالسا على حافة سريره ، عاريا الا من بنطـــلون قصير . وبدت عيناه كعينى فأر حوصر ، فاستعد لمقاتلة المكنسة .
ـ الجبان القذر ! ..
ـ هل سمعت كل شىء ؟ ..
ـ سمعت ما فعله ذلك الجبان القذر .
ـ وهل سمعت بما فعلته أنت ؟ ..
انبرى الفأر المحاصر الى الهجوم ، قائلا :
ـ وماذا يهم ؟ .. كلهم يفعلون هـــــذا .

ـ هل تؤمن بهذا ؟ ..
ـ الا تقرأ الجرائد ؟ .. كلهم حتى اكبر شخصية ـ ما عليك الا أن تقرأ الجرائد . ان كنت متمسكا بالفضائل فما عليك الا قراءة الجرائد . لايمكن أن احتمل ذنوب الجميع . أنا لايهمنى شيء . فقط ذلك المكان القذر .

استيقظت مارى . ورأيتها جالسة على حافة فراش ايلين. انها صخرة عاتية ، لا تتأثر بشيء ، ولاتهتز من شيء . لابد انها انصتت ايضا الى ما دار . وقالت لى :

ـ هل تأتي لكى تنام يا ايثان ؟ ..
ـ ليس الآن ، ياحبيبتى .
ـ هل تخرج مرة ثانية ؟ ..
ـ نعم . لكى امشى .
ـ انت محتاج الى الراحة . لايزال المطر يسقط . هل لابد من خروجك ؟ ..
ـ نعم . هناك مكان اعرفه . لابد أن اذهب اليه .
ـ خذ معطف المطر . انك نسيته قبل الآن .
ـ نعم ياحبيبتى .

لم اقبلها وهذا الجسد الصغير مكور فى الفراش . وانما لمست منكبها ووجهها ، فكانت كصخرة رابضة .

ذهبت الى الحمام برهة لأخذ علبة شفرات .

وما كدت اهم بأخذ معطفى من الصالة امتثالا لمارى حتى فوجئت بايلين تتعلق بى وتدس انفها الدامى فى صدرى وجسدها الغض يرتعد ، وقالت لى :

ـ خذنى معك .
ـ لايمكن يا « عبيطة » . لكن اذا جئت معى الى المطبخ فسوف اغسل وجهك .
ـ خذنى معك . انك لن تعود .
ـ ماذا تقولين ؟ .. طبعا سوف اعود . اننى اعود دائما الى البيت . اذهبى الى فراشك واستريحي . وسوف تشعرين انك احسن .

فتعلقت بي من جديد وأخذت تربت على ذراعى وتدس قبضتيها المكورتين فى خاصرتى وفى جيوبى حتى خشيت أن تعثر على

التسعرات . كانت دائما بنية ملاطفة ، مترددة ، مدهشة في أطوارها وتقلباتها . ولم تلبث فجأة أن تخلت عني ووقفت عن كثب مني رافعة الراس شاخصة العينين بغير دموع . فقبلت وجنتها الصغيرة وشعرت بالدم المتجمد تحت ملمس فمي .. ولم البث ان استدرت الى الباب واسرعت بالابتعاد . ولعلي هربت منها ومن ماري — خصوصا بعد أن سمعت خطواتها الرتيبة تهبط على السلالم .

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الفصل الثاني والعشرون

كان المد في ارتفـــــاع .

خضت في مياه الخليج الدافئة وتسلقت الى داخل « المختلى » والموج الواني يدخل ويخرج معزقا نصفي الأسفل وناثرا من حولي ما لاعقد له من قناديل البحر الصغيرة التي كانت ذؤاباتها تلتصق بساقي وبطني فتحزنني وتؤلمني .

واستحال المطر الآن الى غلالة رقيقة كست النجوم ومصابيح البلدة حتى بدت كصفحة مضيئة قاتمة .

وجاءت موجة أقوى فرفعت ساقي حتى شعرت وكأنهما انفصلتا عني. وشعرت بجسدي يلتهب تحت لدغات قناديل البحر . وعلى البعد لمحت سارية مركب صغيرة مارة ببرق ضوؤها ، ثم ما لبث الضوء أن اختفى بابتعادها .

لكن ضوء مارولو ما زال بارقا لم ينطفىء . وضـــوء جدي الأكبر الكابتن هاولي ما زال ساطعا .

أما ضوئي فقد أفل وانطفأ . وليس أسود من ذبالة خامدة . وكم في الدنيا من حطام نفوس حالكة السواد بعد أن خبا منها كل ضياء .

هناك وقت يعرض للمرء فيقرر فيه الانسحاب كريما مشرفا ، بعيدا عن كل أسلوب مأساوي أو ابتغاء معاقبة النفس أو الأسرة . مجرد وداع رفيق يعقبه حطام دافىء أو شريان مفتوح — بحر دافىء أو شـــفرة ماضـــية .

واندفعت الى الداخل موجة متعالية فرفعت ســـاقي وفخذي والقت بها الى جانب المختلى وانتزعت معطفي في خروجها .

ثم تدحرجت على فخذي وامتدت يدي الى جيبي الجانبي تلتمس علبة الشفرات حتى عثرت عليها . ومن عجب أنني تذكرت اليدين الملاطفتين الحانيتين لتلك التي تغمرني بضياء محبتها ، واذا يدي قد استعصى خروجها من جيبي المبتل . وشعرت كأنما اجتمع في هذه اليد كل ما في الكون من ضياء وسناء .

ثم دفعتنى هجمة من الأمواج والقت بى الى اقصى «المختلى». وزادت حدة الموج . ولم يكن بد من مغالبة الميـــاه لكى اخرج ، وكان على ان اخرج من « المختلى » . فاخـــلت التدحرج وازحف واندفع وانخبط فى مياه غطت صـــــدرى ، الى ان دفعنى تقلب الأمواج الى جدار عتيق من كتب من المختلى .

كان لزاما على ان اخرج . كان لزاما على ان اعيـــد التعويذة الى صاحبتها الجديدة وحاملة الضياء المتجلد .

والا خبا الضياء وانطفأت الشعلة .

تمت

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

روايات الهلال
تقدم الشهر القادم

سعادة الأسرة

بقلم الكاتب الكبير

ليو تولستوى

ترجمة

مختار الوكيل

هذه الرواية

ولد جون شتاينبك عام ١٩٠٢ فى مدينة سالينأس بولاية كاليفورنيا الأمريكية • وبعد أن درس العلوم فى جامعة ستانفورد باشر عددا من الأعمال المتعاقبة : عامل يدوى ، وصيدلى ، وحارس متسفر (للبضائع او الماشية) ، وقاطف فواكه ، ومساح للأراضى • وفى عام ١٩٢٩ اصدر روايته الاولى : (الكاس الذهبية) ، عن مورجان القرصان • وكانت اشهر مؤلفاته هى روايته (عناقيد الغضب) التى صدرت عام ١٩٣٩ ، وقد منحت جائزة بوليتزر ، وتدور احداثها حول اسرة من المهاجرين ذهبت تبحث عن العمل فى كاليفورنيا ، وهى تضارع فى تأثيرها القصة العالمية المشهورة (كوخ العم توم) • وتشمل رواياته الأخرى : (شرق عدن) ، و (عن الفئران والرجال) ، و (اللؤلؤة) ، و (دم الخميس الطو) ، و (كانارى رو) ، الى جانب مجموعات من القصص القصيرة • وفى عام ١٩٦٢ منح جون شتاينبك جائزة نوبل فى الآداب ، وقد توفى عام ١٩٦٨ •